

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المائدة

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾

الخطاب في هذه الآية الكريمة: للمؤمنين، والمراد بالعقود: جميع ما ألزمه الله عباده، وعقده عليهم، من: التكاليف، والأحكام الدينية، وما يعقدونه - كذلك - فيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات، ونحوها مما يجب أو يحسن الوفاء به دينًا، والأمر بالوفاء بها: يعم الوجوب والندب.

ويلاحظ: أن الله ﷻ أمر بالوفاء بالعقود - أولاً - على وجه الإجمال، ثم شرع - ثانيًا - في تفصيل الأحكام، التي أمر بالوفاء بها.

كما يلاحظ: أنه سبحانه بدأ بما يتعلق بضروريات معاشهم، فقال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ والبهيمة: كل ذات أربع، والأنعام: الإبل والبقر والغنم، ﴿إِلَّا مَا يُتَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: يستثنى من هذا التحليل لكم ما يتلى عليكم تحريمه، ويقرأ عليكم في القرآن والسنة.

ففي القرآن مثلاً: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣].

وفي السنة مثلاً قوله ﷺ: «كل ذي ناب من السباع، فأكله حرام» [رواه: مسلم والنسائي].

﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ أي: ما كان صيدًا، أي: لا وسيلة له إلا أن يُصاد، فهو حلال في الإحلال، دون الإحرام، أما ما لم يكن صيدًا: فهو حلال في الحلال والإحرام. وهذا استثناء بعد استثناء، يعني: هذا استثناء بالتحليل من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

عَلَيْكُمْ ﴿٢﴾ تحريمه، والذي هو استثناء من قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾،
﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي: لا يحل لكم الصيد، وأنتم في حال الإحرام بالحج أو بالعمرة.

ثم يقول تعالى تقوية لهذه الأحكام الشرعية، المخالفة لما كان عليه العرب في جاهليتهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ لا معقَّب لحكمه، يشرع ما يشاء كما يشاء، إذ هو مالك الملك، لا مالك ولا حاكم سواه.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوا شَعْبِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا
الْقَلْبِيدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ
فَأَصْطَادُوا وَلَا يُجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن
تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالنَّفْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

الخطاب في الآية كذلك: للمؤمنين مباشرة، وتشريفًا لهم، وحثًا لهم على الاستجابة
والامتثال لشرع الله، و﴿شَعْبِيرَ اللَّهِ﴾: أي: شرائعه، ومعالم دينه، بصفة عامة.
والمعنى: لا تُحِلُّوا شيئًا من فرائضه التي فرضها عليكم - أي: لا تعتدوا عليها - ولا من
نواهيه التي نهاكم عنها.

ثم فصل سبحانه وتعالى بعض هذه الشعائر تخصيصًا بعد تعميم، فقال:

﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي: بالقتال فيه.

﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ أي: ما أهدي إلى الحرم من النعم، والصدقات، بالتعرض له.

﴿وَلَا الْقَلْبِيدَ﴾ جمع قلادة، وهي التي تُشد في عنق البعير وغيره.

والمراد: ولا الهدايا ذوات القلائد، بالتعرض لها.

﴿وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ ولا تُحِلُّوا قتال قوم، أو أذى قوم، قاصدين البيت،
حال كونهم يطلبون فضلًا ورزقًا من ربهم بالتجارة، وكذلك: رضوانًا منه، بحسب زعمهم
الفاسد.

يلاحظ: أن هذه الشعائر الثلاث، الأولى منها، والمشار إليها بقوله: ﴿وَلَا الشَّهْرَ

الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلْبِيدَ﴾ منسوخة بقوله تعالى:

﴿فَأَقْضُوا الْغُرُبَاتَ أُولَٰئِهَا هَبْطٌ خَالٍ وَعِدْتُهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وأما الرابعة: والمشار إليها بقوله سبحانه ﴿وَلَا ءَامِنَ آلِيَّتَ الْحَرَامِ﴾ فممنسوخة بقوله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

هذا ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ أي: إذا تحللتُم من إحرامكم ﴿فَأَصْطَادُوا﴾ يعني: يباح لكم أن تصطادوا ما تريدون مما كان محرماً عليكم، وأنتم في حال إحرامكم بالحج أو بالعمرة.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ يعني: ولا يحملتكم بغضكم لقوم، بسبب صدهم لكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم، وتتجاوزوا الحق إلى الباطل، والعدل إلى الظلم.

وقد نزلت هذه الآية: لَمَّا مَرَّ نَاسٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَرِيدُونَ الْعِمْرَةَ بِالْمُسْلِمِينَ.

فقال المسلمون: نصدُّهم كما صدنا أصحابهم في الحديدية، فنهاهم الله عن ذلك.

وبعد أن نهاهم عز وجل عن ذلك: أمرهم بالتعاون على البر والتقوى، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ أي: تعاونوا على ما أمر الله، واعملوا به، وانتهوا عمَّا نهى الله عنه.

يقول الماوردي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: نَدَبَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى التَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ، وَقَرَنَهُ بِالتَّقْوَى لَهُ؛ لِأَنَّ فِي التَّقْوَى رِضَا اللهِ، وَفِي الْبِرِّ رِضَا النَّاسِ.

وَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ رِضَا اللهِ وَرِضَا النَّاسِ: فَقَدْ تَمَّتْ سَعَادَتُهُ، وَعَمَّتْ نِعْمَتُهُ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى: يَكُونُ بِوَجْهِهِ: فَوَاجِبُ الْعَالَمِ.. أَنْ يَعِينِ النَّاسَ بِعِلْمِهِ؛ فَيَعْلَمَهُمْ، وَيُعِينَهُمُ الْغَنِيِّ: بِمَالِهِ الْحَلَالِ، وَيُعِينُهُمُ الشَّجَاعُ: بِشَجَاعَتِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، بِحَيْثُ يَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ مَنظَاهِرِينَ، كَالْيَدِ الْوَاحِدَةِ.

ثم نهى عن التعاون على الإثم والعدوان، فقال: ﴿وَلَا نَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: لا تتعاونوا على ما فيه معصية الله، أو العدوان على شرع الله، أو عباده.

وختم الآية بالوعيد الشديد لمن خالف ما أمر به، وما نهى عنه، قائلاً:

﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: خافوا عقابه، فأطيعوه؛ حيث إنه شديد

العقاب، لمن خالفه، وعصى أمره، وارتكب ما نهى عنه.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْيَتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَةُ

وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُرْدِيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ
وَأَنْ تَسْقَسُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَ فَمِنْ أَلْسِنَةِ الْيَوْمِ بَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا
تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخَبَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾

هذا شروع في بيان المجرم المحرم الذي أشار إليه رب العزة، في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١]، والذي ذكر هنا، وهو مُحَرَّم: أحد عشر شيئاً، كلها من الأطعمة، إلا الأخير، وهو الاستقسام بالأزلام.

﴿الْمَيْتَةُ﴾ هي كل ما خرجت روحه دون ذبح وتذكية، ﴿وَالدَّمُ﴾ يعني: الدم المسفوح، أي: السائل، دون الكبد والطحال، ﴿وَالْحَمُّ الْخَنِزِيرُ﴾ والمراد: الخنزير: بجميع أجزائه، وإنما خص اللحم بالذكر؛ لأنه معظم المقصود منه، ﴿وَمَا أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ يعني: ما ذُبِحَ ولم يذكر عليه اسم الله، بل ذكر عليه غير اسم الله، ﴿وَالْمُنْحَفَةُ﴾ وهي التي تموت من الحيوانات خنقاً، سواء فعل بها ذلك آدمي، أو حدث لها ذلك بسبب جبل، أو بين عودين، أو غير ذلك، ﴿وَالْمَوْفُودَةُ﴾ أي: المقتولة ضرباً، بعضاً أو بحجر، حتى الموت، دون تذكية، ﴿وَالْمُرْدِيَّةُ﴾ التي سقطت من مكان عال، فماتت، ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ يعني: المقتولة بنطح غيرها لها، ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ أي: ما أكل منه وافترسه كل ذي ناب وأظفار من الحيوان، كالأسد، والنمر، والذئب، ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ يعني: ما أدركتموه، مما افترسه السبع، قبل أن يموت، وأدركتم فيه الروح، وذكيتموه بالذبح، فلکم أن تأكلوا مما بقي منه، ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ يعني: ما ذبح على اسم صنم، وقصد بذبحه تعظيم هذا الصنم، ﴿وَأَنْ تَسْقَسُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ والأزلام: جمع زلم، وهي: سبع قداح صغيرة، لا ريش لها ولا نصل، وعليها أعلام، كانت عند خادم الكعبة، وكانوا يستقسمونها، أي: يحكمونها في أمورهم، فإن أمرتهم: فعلوا، وإن نهتهم: انتهوا.

وهذا الاستقسام بالأزلام، أو كل ما سبق ذكره من المحرمات فسق، وخروج عن طاعة الله سبحانه وتعالى.

ولمَّا رأى المشركون قوة الإسلام وأهله، وهم بعرفة: يشيرون أن يرتدَّ المسلمون عنه، بعد أن كانوا يأمّلون في ذلك، ويطمعون فيه، فنزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبَسُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا يَخْشَوهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ يُروى: أنه جاء رجل من اليهود إلى عمر رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرأونها لو أنزلت علينا معشر اليهود: لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأي آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الحديث [رواه: مسلم].

كما روي: أنها لما نزلت يوم الحج الأكبر، وقرأها رسول الله صلى الله عليه وآله بكى عمر رضي الله عنه فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما يبكيك؟».

فقال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ كمل: فإنه لم يكمل شيء إلا نقص. فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «صدقت».

والمعنى: اليوم يسس الذين كفروا من أن يبطلوا أمر دينكم، وعلى ذلك: فاثبتوا على مخالفة الكفار، واصبروا على حربهم لكم، ولا تخافوا منهم في مخالفتكم لهم، واخشوني وحدي أنصركم عليهم، وأظفركم بهم، وأشرف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ﴾ أي: أجل نعم الله عليكم؛ وهي كمال الدين، فلا تحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيكم، وبكمال الدين لكم: تمت النعمة عليكم، وقد رَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ فارضوه لأنفسكم، وحافظوا على مبادئه، واعملوا بتشريعاته.

ثم تعود الآية الكريمة: إلى تمام بيان أحكام المحرّمات في المطاعم.. حيث يقول تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْبَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والمعنى: فمن كان مضطراً في مجاعة إلى أكل شيء من المحرمات السابقة، والمذكورة في صدر الآية فأكله: فلا إثم ولا ذنب عليه، بشرط: أن لا يكون متلبساً بإثم، كقاطع الطريق مثلاً، وأن لا يأكل فوق حاجته التي يستدفع بها الضرر.

وفي هذه الحالة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ له، يتجاوز له عن إثم ما أكل من المحرّمات، ﴿رَحِيمٌ﴾ به، في إباحته له هذا الأكل، بخلاف المائل المتعمّد للإثم فلا يجزئ له الأكل.

ولما بين الله ﷻ للمسلمين المحرّم عليهم من المطاعم: سألوه عن الحلال لهم وصوّره.. وكانهم قالوا: ماذا أحلّ لنا؟ فأنزل الله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

ومعنى الآية: يسألك أصحابك يا محمد ما الذي أحل الله لهم أكله من المطاعم والمأكّل؟ فكان الجواب: قل لهم يا محمد: أحل الله لكم: ﴿الطَيِّبَاتُ﴾ أي: ما ليس بخبيث، وهو كل ما لم يأت تحريمه في كتاب الله تعالى، أو سنة رسوله ﷺ، أو إجماع الأمة، أو القياس.

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أي: أحل لكم أكل ما اصطادته لكم الجوارح، التي علمتموهنّ، وأدبتموهنّ.. ككلب الصيد، والفهد، والصقر، وغير ذلك، يعني صيد هذه السباع، التي كنتم: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ في حملهن وتدريبهن على الصيد لكم، والحكم في ما صادته الجوارح، قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: كلوا الصيد إذا ظهرت علامة التكليب والتعليم على الذي صاده، وهي: إمساكه، أي: عودوا به إلى صاحبه بعد صيده له، بشرط أن لا يأكل منه إذا كان الصائد كلبًا، ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: على الجارح عند إرساله، أو على الصيد إذا أدركتموه حيًا وذبحتموه، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: التزموا بشرعه، واحذروا مخالفته؛ حيث إنه محاسبكم على أفعالكم، بغاية السرعة والإنجاز.

ثم يقرر ربنا - تبارك وتعالى - ويمنّ علينا، بإباحته لنا أكل الطيبات، فيقول عز وجل:

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْآيَاتِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

تذكير بالنعمة، وتأكيد لإباحة أكل الطيبات، وتحريم الخبائث، وبهذه المناسبة: يذكر تعالى نعمة أخرى، وهي بيان حكم الأكل من طعام أهل الكتاب، فيقرّ سبحانه وتعالى: أن

ذبائح اليهود والنصارى: حل لكم؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، كما أنهم يذكرون على ذبائحهم اسم الله، ومن باب المكافأة: يحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم أيضًا، والكلام: خاص بالذبائح حيث إن سائر الأطعمة الحلال، لا يختص حلها بالملة، ومن تمام بيان الحلال الذي يدخل في سؤالهم: قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: وأحل لكم كذلك: نكاح النساء المؤمنات المحصنات، والمحصنات: هن الحرائر، أو العفيفات.

وليس هذا بشرط لصحة النكاح، كما يقول الإمام النسفي رحمه الله: بل هو للاستحباب، حيث إنه يصح نكاح الإماء من المسلمات، ونكاح غير العفاف منهن، ولكن هذا التخصيص: من باب الحث على التحير لئلف المؤمنين، وبمناسبة الحلال في نكاح المسلمات: كان الكلام عن الحلال في نكاح الكتابيات بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ حلال لكم أن تنكحوهن، وهن اليهوديات والنصرانيات، وذلك: ﴿إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾ أي: دفعتم إليهن مهورهن وكنتم: ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أي: مريدين الزواج على سنة الله ورسوله، وكنتم كذلك: ﴿غَيْرَ مُسْلِفِينَ﴾ يعني: معلنين الزنا بهن، أيضًا: ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي: ولا متخذي صديقات منهن، تزنون بهن سرًا، وعلى هذا: فالزواج والعلاقة الزوجية: هي المباح فقط.

ثم يقول عز وجل: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يعني: ومن يرتد عن دينه، ويرجع عن الإيمان إلى الكفر: فقد بطل عمله، وضاع عليه ثوابه، مهما كان هذا العمل، كما أو نوعًا، وكذلك: من يكفر بشرائع الإسلام؛

كما أنه: يكون من الخاسرين في الآخرة، إذا مات على هذا الكفر.

وهذا: تنبيه على ضرورة التمسك بأهداب هذا الدين، وعدم البعد عن أحكامه وتعاليمه، أو التنكر لها، والإنكار لصلاحيتها.

ومن باب تمام النعمة ما جاء في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ

وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

معنى الآية: يا أيها الذين آمنوا إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وأنتم مُحدثون، أي: على غير وضوء، أو بعد أن كنتم نائمين ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أي: مع المرفقين، وهما مفاصل الكوعين، ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ وفي ذلك خلاف لطيف.

هل يستوعب كل الرأس بالمسح، مرة واحدة، كما ذهب الإمام مالك؟ أو يمسح بعض رأسه، ويستحب ثلاث مرات، كما ذهب الإمام الشافعي؟ أو يمسح ربع الرأس، وهو مقدار الناصية، ثلاث مرات، ولو بماء واحد، كما ذهب الإمام أبو حنيفة؟ الكل جائز. ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ أي: اغسلوا أرجلكم مع الكعبين، هذا عند الحدث الأصغر.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطَهَّرُوا﴾ يعني: فاغسلوا أبدانكم كلها، حتى لا يبقى شيء منها بدون غسل، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ يعني: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ مَرَضًا يَضُرُّ صَاحِبَهُ اسْتِعْمَالَ الْمَاءِ، أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ مَسَافِرِينَ وَلَمْ تَجِدُوا الْمَاءَ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ﴾ من قضاء حاجته التي لا بد منها، ولم تجدوا ماء.

﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي: جامعتم نساءكم، ولم تجدوا ماء.

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ يعني: فالحكم في هذه الحالات الأربع.. أن تقصدوا ترابًا طاهرًا؛ لتطهروا به.

ولكن: كيف يكون ذلك؟ ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ مع المرفقين ﴿مِنْهُ﴾ بضربتين، وكان ذلك كذلك: لأنه ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ ومشقة، في باب الطهارة، ولذلك: رخص لكم التيمم في هذه الحالات المذكورة؛ توسعة عليكم ورحمة بكم، أي: ما يريد ليجعل عليكم من حرج، كما ذكر.

﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ بالتراب عند فقد الماء، ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ برخصه الميسرة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته عليكم فيما شرع، وفيما يسر.

ثم - بعد ذلك - يذكر الله عباده المؤمنين بنعمته عليهم في تشريعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، فيقول عز من قائل:

﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاْتَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

والمعنى: اذكروا نعمة الله عليكم بالإسلام، وعهده الذي عاهدكم عليه ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ للنبي ﷺ حينما بايعتموه ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ في كل ما تأمر به، وتنهى عنه، ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في عهده فلا تقطعوه، ولا تخالفوا فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما في القلوب، وبما في غيرها، من الأقوال والأفعال، فيجازي عليه.

ثم يأمر رب العزة المؤمنين بأمر هي من باب «التقوى»، فيقول عز وجل:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُؤًا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

ومعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا كونوا قائمين لله بالحق في كل ما يلزم القيام به من العمل بطاعته، والبعد عن معصيته، ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل لا بالجور، وبالحق لا بالزور، ولو على أنفسكم، أو الوالدين والأقربين، ولا يحملنكم خلافكم مع قوم، أو كرهكم لهم: على ترك العدل فيهم؛ حيث إن العدل في كل الأوقات، وفي كل الأحوال، ومع كل الناس: أقرب لتقوى الله، واكتساب مرضاته، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمر ونهى، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعيد، وعد بالخير لمن اتقى والتزم، ووعيد بالعذاب لمن خالف وعصى.

وبعد هذه التعاليم: يعد ربنا من يلتزم، بالمغفرة، ومن يخالف، بعذاب الجحيم، فيقول جل وعلا:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾

والمعنى: أن الله تبارك وتعالى وعد ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ﴾ بأن ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو: الجنة.

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَعَانَدُوا رَسُولَنَا، ف ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ﴾ الْمُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ، الْمَلَاذِمُونَ لَهَا.

ولمَّا كان أعداء الإسلام - وما يزالون - يريدون الفتك بالمسلمين، وإنزال الأذى
بهم: ولكنَّ الله وَجَّهَ كَفَّ - وما يزال - أيدي هؤلاء الأعداء وأذاهم عن المسلمين، فقد
قال سبحانه مذكراً - وما يزال - بهذه النعمة:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ
أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

ومعنى الآية: اذكروا نعمة الله عليكم بنجاتكم وقت أن همَّ قوم من أعدائكم، أن
يبطشوا بكم بالإهلاك والقتل، وما يزالون يحاولون ذلك، ولكنَّ الله عز وجل: منع أيديهم
وشرورهم، ومكرهم، وعصمكم منهم، وما أرادوا بكم، ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ بامتثال أوامره،
واجتناب نواهيه، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه الكافي لكم، والمدافع عنكم،
والمتوكَّل بكم وبحمايتكم، وهذه نعمة متكررة شاهدها الصحابة مرات ومرات،
ويشاهدها المسلمون في كل زمان، وهي: تحنُّنا على مزيد التقوى، وبذل الجهد، والأخذ
بالأسباب.

بعد أن أمر عز وجل هذه الأمة بالوفاء بالعقود، والطهارة والصلاة، وبعد أن ذكرها
بنعمة الله عليها، إذ همَّ قوم أن يبسطوا إليها أيديهم: فكفَّ ذلك عنها، بدأ - سبحانه
وتعالى - يبيِّن كيف أنه أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتاب -
اليهود والنصارى - فلمَّا نقضوا عهوده ومواثيقه، أعقبهم ذلك لعنًا منه لهم، وطردها من
رحمته، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، فقال جل جلاله:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا
وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي
وَعَزَّيْتُمْهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ
سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

والمعنى: أخذ الله العهد على بني إسرائيل بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان
بالرسل، ونصرتهم، والإنفاق في سبيل الله، ولو فعلوا ذلك: لكفَّر الله عنهم سيئاتهم،

وتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم، ولأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وأما من كفر منكم بعد ذلك الميثاق والعهد، فقد أخطأ طريق الصواب.

هذا، وقد أمر الله تعالى موسى عليه السلام، أن يأخذ من كل سبط من أسباطهم، نقيباً منهم، ينقب عن أحوال القوم، ويتابعهم، ويفتش عنهم، ويكون كفيلاً عليهم؛ لئتم الوفاء من بني إسرائيل بما عاهدوا الله عليه. فماذا حدث؟

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

فناقضوا الميثاق فأبعدهم الله من رحمته، وجعل قلوبهم قاسية، وصاروا: يحرفون الكلم عن مواضعه إلى غير ذلك، يقول سبحانه: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ﴾ يعني بسبب نقضهم الميثاق الذي عاهدوا الله عليه، ﴿لَعَنَهُمْ﴾ أي: طردناهم، وأخرجناهم من رحمتنا، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ لا رحمة فيها، ولا لين، ولا قبول للإيمان، ووصلت بهم القسوة أنهم صاروا ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ الذي في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وغيره ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ يعني: يبدلونه عن الحق الذي وضعه الله عليه، كما أن القسوة وصلت بهم أنهم ﴿وَنَسُوا حَظًّا﴾ أي: نصيباً مما ذُكِّروا وأمروا به في التوراة من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل الكلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم من المولى تبارك وتعالى تشريفاً له ولهم، وتبييناً لطبيعة اليهود، حيث يقول: ﴿وَلَا نَزَالُ﴾ يا محمد، وكذلك: يا أيها المسلم، ﴿تَطَّلِعُ عَلَى﴾ تظهر، وتتكشف، ﴿خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ يعني: على خيانة، أو فعلة ذات خيانة، ويُفهم من قوله: ﴿وَلَا نَزَالُ﴾ أن هذه عادتهم، فلا تأمن لهم، وكذلك المسلمون من بعدك، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا منهم، والذين يؤمنون كذلك، وهم أقلية قليلة، وهؤلاء القلة ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ﴾ وتجاوز عما سلف منهم، فلا تؤاخذهم به، كأدبك مع المؤمنين؛ حيث صاروا منهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يلاحظ: أن الميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل كان بخمسة أشياء، هي:

الصلاة، والزكاة، والإيمان بالرسول، ونصرتهم، وفعل الخير، وأنهم عوقبوا على النقص له بقسوة القلب، والطرد من رحمة الله، وهذه الأشياء نفسها أخذت علينا.

وعلى هذا.. فمن رأى من قلبه قسوة: فليظنر أي شيء قَصَّر فيه من هذه الأمور، حتى يصلح حاله، ويلين قلبه. ثم يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَىٰ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

ومعنى الآية: كما أخذنا على اليهود العهود، أخذنا كذلك على الذين قالوا إنا نصارى، وابتدعوا لهم هذا الاسم، فماذا فعل هؤلاء أيضًا؟ يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني: تركوا وأهملوا ما نزل عليهم، وشرع لهم، بل خالفوه، ومن ذلك: التوحيد والشرائع، ولذا عاقبهم على ذلك.

ولكن بماذا؟ يقول تعالى: ﴿فَأَغْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ أي: ألقينا بين فرق النصارى المختلفة والكثيرة العداوة، والبغضاء؛ حيث لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا، بل كل فرقة تحرم الأخرى من الجنة في زعمها، ولا تدعها تدخل معبدها، ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ والأمر فيهم هكذا إلى يوم القيامة، وهو عقاب مستمر بهم، كما هو مُشاهد.

هذا ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ﴾ في الآخرة، ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ويجازيهم عليه.

وقد دلت الآية الكريمة: على أن نسيان جزء من الوحي يجعل الأمة تستحق العداوة والبغضاء، وأمتنا نسبت الكثير من الوحي، أو تركت العمل به، ولذا: فآثاره من العداوة والبغضاء بين أفرادها، وجماعاتها، وشعوبها مُشاهد، وواقع كما نرى.

وبعد أن خاطب الله كل فريق من أهل الكتاب على حدة، حيث بين لليهود نقضهم للتوراة، كما بين للنصارى نقضهم للإنجيل، خاطب الفريقين معًا قائلًا عز وجل:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ
وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

ومعنى الآية: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ﴾ تكتُمون من كتابكم، وتخفونه، مثل: التوحيد، وتنزيه الله تعالى، والشرائع، وصفة محمد ﷺ ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ مما كنتم تخفونه، أي: يسكت عما كنتم تغيرونه وتخرفونه، ولا فائدة في بيانه.

يا أهل الكتاب ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ وهو محمد ﷺ، وسمي نوراً؛ لأنه يهتدى بما جاء به، ويُقتدى بسلوكه وشخصه، وجاءكم أيضاً ﴿كِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ أي: واضح، ظاهر الإعجاز.

هذا الكتاب ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي: يهدي به الله طرق السلامة، التي توصل إلى رضوان الله، ورحمته، وجنته، وهي: الإيمان به، وبرسله، وبكتبه.

وبهذا الكتاب ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني: يُخرج بهذا الكتاب من آمن بالله ورسله وكتبه من ظلمات: الشرك، والشك، والشهوة، إلى نور الإسلام والمعرفة، وكل ذلك ﴿بِإِذْنِهِ﴾ وإرادته، وتوفيقه، وفوق كل هذا، يا أهل الكتاب: يهديكم القرآن وما يحتويه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني: إلى الطريق الأقوم السليم، الذي لا اعوجاج فيه، ولا انحراف.

يا أهل الكتاب: بعد بيان مهمة محمد ﷺ، وتوضيح هدي القرآن، هل يليق بمنصف ألا يؤمن بهما؟! كلا، ومن يكفر: فليسمع ما يلي:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

نعم، كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم - وهم «اليعقوبية»، فرقة من فرق

النصارى، وأي كفر أقطع من جعل البشر إلها..؟ ولذلك: رد الله عليهم، وأبطل قولهم الفاسد، حيث قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ﴾ أن يدفع ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ من عذاب الله ﴿شَيْئًا﴾ أو يرد قضاءه ﴿إِنِ ارَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ الذي زعموه إلها ﴿وَأُمَّهُ﴾ كذلك ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الناس ﴿جَمِيعًا﴾.

ومعنى هذا: أن المسيح عبد مخلوق كسائر العباد، وهو وأمه عليهما السلام: من جنسهم، وقل لهم يا محمد كذلك ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ملكًا، يعني جميع الموجودات ملكه سبحانه، ومن هؤلاء المسيح ابن مريم وأمه، ومن كان مملوكًا لغيره: لا يصير ربًا.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من ذكر وأنثى، كسائر الناس، ومن أنثى بلا ذكر، كعيسى عليه السلام، ويخلق بلا ذكر ولا أنثى، كآدم عليه السلام ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم يردُّ الله عليك على أهل الكتاب في افتراء آخر من افتراءاتهم.. بقوله عز وجل:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ فَلَمَّ يَعْذِبْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨)

معنى الآية: قالت اليهود، وقالت النصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ أي: مثل أبنائه في القرب والمنزلة والمحبة، وهو: كأبنا في الرحمة والشفقة.

قال الله تعالى لحبيبه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ﴾ لهم: إن صح أنكم أبناء الله وأحباؤه، فلم يعاقبكم ويعذبكم بذنوبكم، في الدنيا وفي الآخرة؟

ومعلوم: أن الأب لا يعذب ولده، وأن الحبيب لا يعذب حبيبه، وقد عُذِّبْتُمْ، فأنتم كاذبون في دعواكم، ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ لكم ما لهم، وعليكم ما عليهم، ولا مزية لكم على أحد، إلا بالإيمان، والعمل الصالح، لو كان!! ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ المغفرة له ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ دون اعتراض من أحد على هذا أو ذاك، حيث إن ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع في النهاية، عند الحساب، والجزاء، وفي هذا: تنبيه، ووعد، ووعيد.

ويبين الله - بعد هذا كله - لأهل الكتاب من خلال خطابه لهم: أنه قد أرسل محمدًا ﷺ، بعد فترة انقطاع للوحي وللرسل، بشيرًا ونذيرًا، حيث يقول تبارك وتعالى:

﴿يَأْهَلِ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩)

ومعنى الآية: يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ شرائع الله، وما كنتم تخفون، وما كنتم فيه تختلفون ﴿عَلَى فَتْرٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي: بعد فتور وانقطاع للوحي والرسل، وكان إرساله ﷺ: لئلا تقولوا إذا عذبتم ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ فلم نُعَذَّبْ إِذَا !! ولذلك، وقطعًا لأعداركم: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرٌ﴾ للكافرين، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن ذلك: تعذيبكم إن لم تتبعوه.

وبعد ذلك: يذكر موسى ﷺ قومه بنعمة من نعم الله عليهم، ليستجيبوا له، ولكنهم يرفضون، ويعاقبون، وفي ذلك: تربية لأمة محمد ﷺ، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٠)

ومعنى الآية: أن الله تعالى يقول لمحمد ﷺ، ولكل فرد من أمته، ليتعظ ويعتبر: اذكر وقت أن قال موسى ﷺ لقومه: ﴿يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فلا تنسوها، واعملوا بموجبها، واشكروا له عليها بصفة عامة - حيث إن نعم الله كثيرة، ثم ذكر - على وجه الخصوص - ثلاثًا من هذه النعم، لقومه:

الأولى: أنه جعل منكم أنبياء، كيوسف، وموسى، وهارون، ﷺ.

الثانية: وجعلكم ملوكًا أي: أحرارًا، بعد أن كنتم مستعبدين مستذلّين في أيدي القبط، وصرتم أصحاب خدم وحشم.

الثالثة: ﴿وَءَاتَاكُمْ مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ في زمانكم، من المن والسلوى، وخلق البحر، وإغراق العدو، وغير ذلك.

ولذلك: ربّ موسى ﷺ على التذكير بهذه النعم أمرًا ونهيًا لهم، في قوله:

﴿يَقَوْمِ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرُدُّوا عَلَىٰ آدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿٢١﴾

والمعنى: أنه لما ذكّرهم بنعمة الله عليهم، أمرهم بالخروج للجهاد، فقال أمراً لهم: ﴿يَقَوْمِ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المطهرة، وهي أرض بيت المقدس وما حولها، ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ في اللوح المحفوظ أنها مساكن لكم، وأمرهم بدخولها، ثم قال ناهياً لهم: ﴿وَلَا تَرُدُّوا عَلَىٰ آدْبَارِكُمْ﴾ أي: ولا ترجعوا عن دينكم وأحكامه وتعاليمه، أو: ولا ترجعوا على آدابكم خائفين من عدوكم إذا رأيتموه، أو واجهتموه. وإلا.. ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي: ترجعوا - إذا رجعتم على آدابكم منهزمين خاسرين ثواب الدنيا والآخرة. فلمعرفة ماذا كان جوابهم؟ كان جوابهم:

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾

وهكذا بدأ الخوف، إنهم حتى ما حاولوا الدخول، ولكن: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ﴾ عتاة، يجبرون الناس على ما يريدون، وبناء على ذلك: ﴿لَن نَّدْخُلُهَا﴾ للقتال، ولا بالقتال ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بلا قتال، ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بغير قتال ﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾. وهنا:

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٣﴾

معنى الآية: أن بني إسرائيل لما خافوا من الدخول، وتعلّلوا لعدم تنفيذ أمر الله تعالى الذي قاله موسى ﷺ لهم: ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ مؤمنان يتّصفان بصفيتين: الأولى: ﴿يَخَافُونَ﴾ الله، ويخشونه، ويتقون عذابه.

الثانية: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بنعمة التقوى والخوف منه، ماذا قالوا؟ قالوا لهؤلاء القوم الخائفين: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أي: باب القرية، ولا تخافوهم، فهم أجساد بلا قلوب ولا عقول، ولذلك ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ لهم بإذن الله، فتوكلوا على الله وادخلوا ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وسينصركم عليهم؛ حيث إنه تعالى لا يخذل أولياءه.

ماذا فعل القوم؟ لم يلتفتوا إلى كلام هذين الرجلين المؤمنين، بل:

﴿قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (٢٤)

يعني: هذا قرارنا النهائي ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ ولن نحارب، وأما أنت، فإذا كنت تريد الدخول، وقاتل هؤلاء الجبارين ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا﴾ هؤلاء القوم ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ممتنعون عن القتال، ننتظر ماذا ستفعل معهم، وماذا سيفعلون معك، ولا دخل لنا بشيء، وهكذا عصوه، وخالفوه، وخذلوهم، وفسقوا، ولذلك:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٥)

ومعنى الآية: أنه توجه إلى ربه، وبث شكواه، وأعلن عجزه، وطلب نصرة مولاه، حيث ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ﴾ لنصرة دينك ﴿إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ فقط، ولذلك ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: افصل بيننا وبينهم، واحكم لنا بما وعدتنا، واحكم عليهم بما هم أهلهم، وباعد بيننا وبينهم، وخلصنا من صحبتهم. وكان الجواب في قوله تبارك تعالى:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦)

يعني: أجاب الله دعاءه ﷺ، حيث ﴿قَالَ﴾ له: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الأرض المقدسة؛ إذ إنه عز وجل كتبها لهم بشرط الجهاد، فلما أبوا، مُنِعُوا من دخولها عدلاً، ولم يُمنَعُوا من التعبد فيها فضلاً منه سبحانه، وكان هذا التحريم لمدة ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، ماذا يفعلون خلالها؟ ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يسировون فيها تائهين متحيرين.

هذا حكم الله فيهم يا موسى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني: فلا تحزن عليهم؛ حيث إنهم فسقوا وخالفوا وعصوا، فاستحقوا هذه العقوبة.

إن المولى سبحانه بعد أن قال لمحمد ﷺ: اذكر لليهود ولأمتك كذلك ما طالب به موسى ﷺ قومه أن يذكروا نعمة الله عليهم؛ ليستجيبوا لشرع الله تعالى، وليقبلوا على الجهاد في سبيل الله، ولكنهم لم يفعلوا بسبب طبيعتهم في نقض المواثيق والعهود، بعد هذا: قال لحبيبه ﷺ:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَاتْلُ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على قومك، وعلى أهل الكتاب، هذه القصة، ليعرف الجميع ما يجزّ ويؤدي إليه الحسد من قطع ما أمر الله به أن يوصل، والقتل، الذي هو أشدُّ إفساداً في الأرض، اتل عليهم:

﴿آتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ﴾ هابيل وقابيل.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: وأنت صادق فيما تقول.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ أي: قدّم كل واحد منهما ما يتقرب به إلى ربه صدقةً.

﴿فَتُقْبِلُ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ قربانه، وهو هابيل.

﴿وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ قربانه، وهو قابيل.

﴿قَالَ﴾ قابيل: حسداً لأخيه ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، قال هابيل: لِمَ؟، قال قابيل: لتقبّل قربانك، وعدم تقبّل قرباني، ﴿قَالَ﴾ هابيل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ولو كنت من المتقين لتقبل الله منك. ثم قال هابيل لأخيه:

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يعني: على كل حال ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾ أي: مددتها إلي ﴿لِتَقْتُلَنِي﴾ لن أعاملك بالمثل، و﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾، حيث ﴿إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ في قتلك.

ثم قال هابيل أيضاً: ﴿إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: ﴿إِنَّي أُرِيدُ﴾ يا أخي ﴿أَنْ﴾ لا تكون قاتلاً،

حتى لا ﴿تَبْأُوا﴾ ترجع حاملاً ﴿يَأْتِمِي﴾ أي: ذنبي إذا قتلني ﴿وَأَيْمُكَ﴾ أي: ذنبك، الذي بسببه لم يتقبل الله قربانك، وهو: عقوق الأب، والحسد والحقد، ولو فعلت ذلك وقتلني ﴿فَتَكُونَنَّ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ ولا أريد لك، ولا لنفسي ذلك.

وبالرغم من هذا الكلام الطيب، والنصائح الشفوقة من أخيه، فإن الله ﷻ يخبر عن موقفه بقوله:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ (٣٠)

يعني: فزيّنت ﴿لَهُ نَفْسُهُ﴾ وشجّعته على ﴿قَتْلِ أَخِيهِ﴾ حسداً وظلماً، ولم يقاومها، ولم يخف الله في ذلك، ﴿فَقَتَلَهُ﴾ أي: قتل قابيل هابيل، ﴿فَأَصْبَحَ﴾ بقتل أخيه، وسفك الدم الحرام، ﴿مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ في الدنيا والآخرة.

وقد دل هذا: على أن القتل بغير حق.. هو ذروة الضلال، حيث إنه: نقض عهد، وقطع رَجْم، وإفساد في الأرض، وظلم للعباد.

وهنا لم يَدْرِ قابيل ما يصنع بأخيه المقتول؛ لأنه أول ميت على وجه الأرض من بني آدم، كل الذي فعله أنه حمله على ظهره، وصار يدور به من مكان إلى مكان، دون أن يدري ماذا يفعل؟

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّلتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (٣١)

وهو يحمل أخاه على ظهره، ويدور به، ولا يدري ماذا يفعل، ماذا حدث؟ ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ ينبش التراب بمنقاره، وبرجليه، ويشير التراب على غراب ميت معه، حتى واره، وأخفى جثته، وكان هذا ﴿لِيُرِيَهُ﴾ الله ﴿كَيْفَ يُورِي﴾ يدفن ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ جثته ويستر عورته.

ثم ﴿قَالَ﴾ لَمَّا عرف عجزه، وقلة حيلته، ﴿يُنَوِّلتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ الذي دفن ووارى جثة أخيه ﴿فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي﴾ كما فعل الغراب.

وبالفعل، وارى ودفن أخاه، وشعر بالندم والخزي على ما فعل ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على قتل أخيه، وفقده، وعدم اهتدائه للدفن الذي تعلّمه من الغراب.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ﴾ ﴿٣٢﴾

والمعنى: من أجل هذا القتل الذي فعله قاييل ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لأن كتابهم أول كتاب سماوي، وهو حكم في كل دين وشريعة.

ولكن ماذا كُتِبَ؟ ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: دون أن يكون قصصًا ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: أو فساد منها، كَشِرْك، أو قطع طريق، مَنْ فعل ذلك ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ﴾ لأن الاعتداء على نفس واحدة اعتداء على الناس جميعًا وكذلك ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: أنقذها من هلاك، بغرق أو قتل، أو غير ذلك، مَنْ فعل ذلك ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ لأن إحياء نفس واحدة إحياء للناس جميعًا. ثم يعقّب الله على هذه القصة بشيء من طبيعة بني إسرائيل، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالآيات الواضحات، والدلائل الباهرات، ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد مجيء هؤلاء الرسل، ومعرفتهم لهذه الآيات، وظهور الحق أمامهم ﴿فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ﴾ متجاوزون كل حد، ومن ذلك القتل، حيث لا يبالون بفظاعته، ولا يحترمون النفس البشرية، حتى إنهم قتلوا الأنبياء.

وبعد أن قرر المولى شناعة قتل النفس، إلا في حالة القصاص، وحالة الإفساد في الأرض، ذكر سبحانه حكم الذين يحاربون الله ورسوله، ويفسدون في الأرض بقوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٣٣﴾

نزلت هذه الآية في قوم من العرب، قدموا المدينة، فأقاموا بها، ولم يستريحوا فيها،

فبعثهم رسول الله ﷺ إلى البادية في إبل الصدقة، وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا، وصحّت أجسامهم، ولكنهم.. ارتدّوا عن الإسلام، وقتلوا راعي الإبل، وساقوها - يعني سرقوها - فأرسل النبي ﷺ في آثارهم، فجيء بهم، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إلخ، ونزلت الآية. وهي في حكم الحرابة.

ومعناها: أن جزاء الذين يحاربون دين الله، وكتابه، ورسوله، والمسلمين، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بقطع الطريق، وإفساد البلاد، وإضرار العباد: هو ما يلي:

أولاً: ﴿أَنْ يَقْتُلُوا﴾ واحداً بعد واحد، دون صلب وقطع.

ثانياً: ﴿أَوْ يُصَلِّبُوا﴾ مع القتل.

ثالثاً: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ يعني: اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، وهكذا.

رابعاً: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني: يُحسبوا، ﴿ذَلِكَ﴾ الجزء المذكور ﴿لَهُمْ حِزْبٌ﴾ أي: ذل ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ وفضيحة، ﴿وَهُمْ﴾ كذلك ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿وهي: نار جهنم.

ولكن ما حكم من يتوب من هؤلاء ﴿الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾؟ يقول الله تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٤)

يعني: من تاب من هؤلاء المحاربين، وسلّم نفسه، من قبل أن يُقبض عليه: فتسقط عنه هذه الحدود المذكورة، والتي هي حق الله تعالى.

وأما حقوق العباد: فعليه أن يؤدّيها، كمالٍ مسروق، أو غير ذلك.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لهم على ما فعلوه من قبل، يغفره لهم بالتوبة ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، فلا يعذبهم، بل يرحمهم بسبب توبتهم.

ثم يتوجه ربنا تبارك وتعالى بالخطاب للمؤمنين قائلاً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٥)

والمعنى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خافوا عقاب الله، وأطيعوه، ﴿وَأَبْغَوْا﴾ أي: واطلبوا ﴿إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ يعني: ما يقربكم إليه من طاعته، ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ لإعلاء دينه، ونشر هديِهِ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ تفوزون برضوانه، ونعيمه. ويلاحظ: أن طريق الفلاح في الآية هو: التقوى، والعمل الصالح، والجهاد. ولذلك: مَنْ فَرَّطَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ، أَوْ بَوَاحِدٍ مِنْ مَفْرَدَاتِهِ، ضَاعَ مِنْهُ الْفَوْزُ وَالْفَلَاحُ. ثم يرغَّب ربنا ﷻ في وجوب المسارعة إلى امتثال الأوامر التي ذُكِرَتْ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ فيقول جل جلاله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

ومعنى الآية: إن الذين كفروا حين يعاينون العذاب يتمنون الهروب منه، وافتداء أنفسهم بالغالي والنفيس، و﴿لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من صنوف أموالها، وذخائرها، وسائر منافعها: لافتدوا به من هذا العذاب، ولو أن لهم ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ كذلك: ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ حين يعاينوه، لو أنهم يفتدون أنفسهم بهذا وذاك ﴿مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ لا هذا ولا ذاك، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجه ثابت، لا يغيب عنهم، يعني: يدخلون النار، ويُعَذَّبُونَ فِيهَا عَذَابًا أَلِيمًا، فإذا دخلوا النار، وعُذِّبُوا فِيهَا:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ يعني: يتمنون ويطلبون ﴿أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ﴾ ولكن ﴿مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ أبدًا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: عذاب دائم، لا ينقطع عنهم. وبعد بيان أحكام السرقة الكبرى، في آية الحرابية ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣] يبين ربنا ﷻ أحكام السرقة الصغرى في قوله تعالى:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ مَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾

يعني: حكم السارق والسارقة، أن تقطع اليد اليمنى من كل واحد منهما، رجلاً كان أو امرأة، حتى الرسغين، وذلك: مجازاة من الله لهما على صنيعهما هذا، وكذلك: عقوبة رادعة منه ﷻ. ويلاحظ:

١ - أن الذي يُقطع فيه ربع دينار فصاعداً.

٢ - أن السارق إذا عاد للسرقة بعد إقامة هذا الحد عليه: قطعت رجلاه اليسرى من مفصل القدم، ثم إذا عاد ثالثاً: قطعت اليد اليسرى، فإذا عاد رابعاً: قطعت الرجل اليمنى، فإذا عاد بعد ذلك: يعزَّر بما يراه الإمام أو القاضي.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه، وفي ما يناسب خلقه.

ومن طرائف ما يُذكر أن بعض الزنادقة اعترض على الفقهاء، إذ جعلوا نصاب السرقة: ربع دينار فقال:

يَدْ بِخَمْسِ مِئِينَ عَسْجِدٍ وَوَيْتٍ مَا بِأَلْهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارٍ؟

تَحْكُمُ مَا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ وَأَنْ نَعُودَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ

فأجابه أحد العلماء بقوله:

عِزُّ الْأَمَانَةِ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصَهَا ذُلُّ الْخِيَانَةِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي

وعلى كل حال: ﴿مَن تَابَ﴾ من السرقة ﴿مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ بهذا الفعل لنفسه،

ولمن ظلمهم، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بَرَدَ الْمَسْرُوقَ ﴿فَكَانَ اللَّهُ﴾ يقبل توبته و﴿يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أي: يغفر ذنبه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعفو عنه، ويرحمه، بشرط رَدِّ

الحقوق لأصحابها. ثم يقول الله تعالى للنبي ﷺ، ولكل أحد:

﴿إِنَّمَا تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٤٠﴾

ومعنى الآية: اعلم أن الله تبارك وتعالى له ملك السموات والأرض، وما فيهن، ومن

فيهن.

وما دام هو المالك، ولا مالك سواه: فإنه ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ تعذيبه، وقد شاء

أن يعذب من مات على الكفر ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وقد وعد أن يغفر لمن تاب عن

الكفر قبل أن يموت، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من التعذيب والمغفرة، وغير ذلك ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: قادر.

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٤١)

الخطاب في هذه الآية: لرسول الله ﷺ.. عن صنفين من الناس يسارعون في الكفر وهما: المنافقون، واليهود.

ومعنى الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنكَ﴾ صنع ﴿الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ ويقعون فيه بسرعة، ويظهرونه إذا لاحت لهم فرصة، وذلك يحدث: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بألسنتهم، ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ في حقيقة الأمر، وهم المنافقون، ويحدث كذلك: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم قوم من اليهود، يتصفون بصفتين:

الأولى: ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ من أحبارهم، ونقله للعوام.

الثانية: ﴿سَمَّعُونَ﴾ للحق منك، ونقله لأحبارهم، ليحرفه الأحبار، ﴿لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ من اليهود ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ لتكبيرهم، وبغضهم لك، وكرهيتهم أن يحضروا مجلسك.

هؤلاء اليهود: ﴿يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ﴾ الذي في التوراة، كآية الرجم، ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ التي وضعها الله عليها، يعني: يبدلون كلام الله ويغيرونه، كما حدث حينما زنى منهم شريفان محصنان، وكان حدهما في التوراة الرجم، ولأنهم كرهوا رجمهما لشرفهما: بعثوا رهطاً منهم ليسألوا النبي ﷺ، عسى أن يجدوا لهما غير الرجم، ولكن النبي ﷺ: أمرهم بالرجم، فلم يعجبهم ذلك، حتى أظهر الله هذا الحكم، وهو الرجم على أيدي علمائهم من التوراة.

وكان اليهود يقولون لمن أرسلوهم للنبي ﷺ: ﴿إِن أُوْتِيتُمْ هَذَا﴾ الحكم الذي تريدون، وهو الجلد للزانيين المحصنين، وأفتاكم به محمد ﴿فَحُدُّوهُ﴾ واقبلوه، وَتَقَدُّوهُ، ﴿وَإِن لَّمْ تَوْتَوْهُ﴾ بل أفتاكم بخلافه ﴿فَأَحْذَرُوا﴾ أن تقبلوه. وهكذا ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ وإضلاله ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ في دفع هذه الفتنة عنه.

﴿أُولَئِكَ﴾ المنافقون واليهود ﴿لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من الكفر، ولو أراد ذلك لكان، وهذه عقوبتهم: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ ذل الفضيحة للمنافقين، وذل الجزية لليهود، ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الخلود في عذاب جهنم. ثم يتم المولى حديثه مع النبي ﷺ عن اليهود بقوله عز وجل:

﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْلُونَ لِّلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ تكرير لتأكيد هذه الصفة فيهم.

ومعنى الآية: أن من صفات اليهود الراسخة فيهم أنهم ﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يتلذذون بذلك، بل يختلقونه ليسمعوه، ﴿أَكْلُونَ لِّلسُّحْتِ﴾ مبالغون، شرهون في أكل السحت، وهو كل ما لا يحل كسبه من المال الحرام، ويدخل فيه السرقة، والرشوة.. إلخ.

﴿فَإِن جَاءُوكَ﴾ يا محمد، لتحكم بينهم، فأنت بالخيار ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

ويلاحظ: أن هذا التخيير.. قد نُسخ العمل به، وذلك بقوله تعالى:

﴿وَأِن أَحْكَم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

وكان الحكم في هذا التخيير المنسوخ، أنه: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولم تستجب لهم: ﴿فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ حيث إن الله تعالى يعصمك من الناس، ويدفع عنك أذاهم، ﴿وَإِن حَكَمْتَ﴾ بينهم، واستجبت لهم ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

ولكن.. أمرهم عجيب!!

﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٣)

ومعنى الآية: عجيب أمر هؤلاء اليهود!! كيف يأتون إليك، ويطلبون حكمك، وهم لا يؤمنون بك، ولا بكتابك!! في الوقت الذي يوجد فيه الحكم الذي يسألون عنه في كتابهم الذي يُدعون إلى الإيمان به، منصوص عليه في التوراة.

والأعجب من هذا أنهم بعد تحكيمك، وحكمك فيهم ولهم، الموافق لما في كتابهم: لا يرضون به.

حقًا: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ لا بك، ولا بكتابك، ولا بكتابهم كما يدعون.

هذه التوراة، التي لا يرضون بأحكامها: يرفع الله عَنْكَ شأنها، ويعلي من منزلتها؛ بيانًا لسوء تصرفهم معها، وعدم إيمانهم بها، فيقول جل جلاله:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِكُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٤٤)

ومعنى الآية: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ﴾ على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فِيهَا هُدًى﴾ من الضلالة؛ يهدي للحق، ﴿وَنُورٌ﴾ يبين للناس الأحكام، التي يحتاجون إليها. ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ من بني إسرائيل، موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن بعده منهم، هؤلاء النبيون هم ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ أي: انقادوا لحكم الله في التوراة، وهي صفة مدح، أريد بها التعريض باليهود الذين يعادون ملة الإسلام، دين الأنبياء وأتباعهم جميعًا، يحكمون بها ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ عامة اليهود، ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ﴾ العلماء منهم، ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ الفقهاء منهم. وكان حكمهم هذا ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: استودعه الله عندهم، واستحفظهم عليه، حتى لا يبدل، أو حتى لا يبدلوه هم.

﴿وَكَانُوا﴾ في الوقت ذاته ﴿عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ أنه حق لا شبهة فيه.

ثم ينهى ربنا ﷻ من يحكم بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْتَكَاثُرَ﴾ في حكمكم لهم أو عليهم أبداً، ﴿وَأَخْشَوْا﴾ واتقون.

وهو: نهي لمن يحكم، أن يحكم بغير العدل؛ بسبب الخشية من سلطان ظالم، أو الأذية من أحد.

وكذلك: ينهى من يحكم قائلاً: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيَّتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تستبدلوا أحكامي، أو تغيروا فيها، أو تظلموا بسببها من أجل ثمن قليل، رشوة مثلاً، أو ابتغاء جاه، أو مرضاة لأحد، حيث إن ذلك - لو كان - يكون: حكم بغير ما أنزل الله. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ مستهيناً به، أو منكرًا له، أو مفضلاً لغيره عليه، أو مُستحلاً ما حَرَّمَ الله. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ بالله تعالى، ورسله، وما أنزل الله.

وما أكثر هذا - بكل أسف - في عصورنا!!

ثم يوضح ربنا تبارك وتعالى بعض ما جاء في التوراة، بقوله عز وجل:

﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٥)

ومعنى الآية: أنا فرضنا على اليهود في التوراة ﴿أَنَّ النَّفْسَ﴾ تقتل ﴿بِالنَّفْسِ﴾ إذا قتلتها بغير حق.

﴿وَالْعَيْنَ﴾ تُفَقَأُ ﴿بِالْعَيْنِ﴾ إذا فُقِئَتْ.

﴿وَالْأَنْفَ﴾ تُجَدَعُ ﴿بِالْأَنْفِ﴾ المجدوعة.

﴿وَالْأُذُنَ﴾ تُقَطَعُ ﴿بِالْأُذُنِ﴾ المقطوعة.

﴿وَاللِّسْنَ﴾ تُقْلَعُ ﴿بِاللِّسَنِ﴾ المقلوعة.

أما ﴿الْجُرُوحَ﴾: فهي ﴿قِصَاصٌ﴾ أي: يُقتَصَبُ فيها إن أمكن ذلك كاليد، والرجل، ونحو ذلك، وما لا يمكن فيه القصاص: ففيه الحكومة، وهي جزء من دية النفس.

ويلاحظ: أن هذا الحكم، وإن كُتِبَ عليهم فهو مقرَّر في شرعنا.

هذا هو الحكم، ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ أي: بالقصاص، من أصحاب الحق وعفا

عنه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ أي: كفارة لخطايا المتصدق، بإحسانه، وتنازله عن هذا الحق، وعفوه عن صاحبه، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ في هذه الأشياء، التي فيها القصاص، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ حيث لم يعدلوا، وامتنعوا عن الحكم بما أنزل الله في هذه الأشياء، التي شرعت لهم في التوراة.

وبعد أن بين الله أحكام التوراة: يبدأ في بيان أحكام الإنجيل، فيقول عز وجل:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

ومعنى الآية: وأتبعنا أنبياءهم عيسى ابن مريم، وجعلناه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: مؤتمناً، وحاكماً، وبنياً أحكامه على ما سبقه من التوراة، ﴿وَءَاتَيْنَاهُ﴾ مع ذلك ﴿الْإِنجِيلَ﴾ حال كونه، ﴿فِيهِ هُدًى﴾ من الضلالة، يهدي إلى الحق، ﴿وَنُورٌ﴾ يبين للناس الأحكام، التي يحتاجون إليها.

هذا الإنجيل كذلك: جعلناه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: غير مناقض لها، ولا مخالف لما فيها، بل مصدق لأحكامها، كما أنه - أي: الإنجيل - في ذاته: ﴿هُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾ أي: هادياً وواعظاً، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ حيث إنهم الذين ينتفعون بوعظ الإنجيل لهم، وهدية فيهم. وقلنا لأهل الإنجيل:

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

ومعنى الآية: أنا أمرنا أهل الإنجيل، أن يحكموا ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ من الأحكام، وفرضنا ذلك عليهم، وبيئنا أن: ﴿مَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ في الإنجيل، وفي كل كتاب أنزله الله ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الذين لا يحكمون بذلك ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله.

وبعد الكلام عن التوراة، وبعد الكلام عن الإنجيل، يأتي الكلام عن القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ومعنى الآية: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ القرآن، بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله، وليبين الصواب من الخطأ في كل شيء. أنزلنا إليك القرآن، حال كونه:

أولاً: ﴿مُصَدِّقًا﴾ لما تقدمه من كتب سماوية، لموافقته لما فيها، قبل تحريفها، وتبديلها.

ثانياً: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ عليها أي: شاهداً على ما فيها؛ حيث إنه تضمن ما جاء فيها، وزاد عليها من الكمالات ما لا يحيط به إلا الله، لذلك: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ يا محمد، ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ في القرآن، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلة، التي ما أنزل الله بها من سلطان، وتصرف بسبب ذلك، ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ الذي لم يبدل، ولم يحرف، ولم يأت من الله ما ينسخه ويغيره. وكان ذلك حيث إنه: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ أي: لكل منكم شريعة، وطريقة، ولكن الدين واحد، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مجتمعين على شريعة واحدة وطريقة واحدة، ﴿وَلَكِنْ﴾ كان ذلك الاختلاف بينكم ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: يختبركم ﴿فِي مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة؛ حيث تعبد كل أمة بما اقتضته الحكمة الإلهية، حتى أنزل سبحانه وتعالى القرآن، فتعبد الناس جميعاً به وبأحكامه، ولذلك ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي: تسابقوا في تنفيذ ما جاء به محمد ﷺ، قبل فوات الأوان، خاصة وأنه: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾.

ثم يؤكد ربنا ﷻ الأمر بوجوب الحكم بما أنزل الله وحده، فيقول جل جلاله:

﴿وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

هذه الآية: نزلت في شأن الدماء، والديات، ومعناها: أنزلنا إليك الكتاب يا محمد لتحكم بينهم بما فيه، فاحكم بينهم بما أنزل الله.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهواء أهل الكتاب، أو أية أهواء، بصفة عامة، تخالف شرع الله، ﴿وَأَحْذَرَهُمْ﴾ أي: احذر منهم، ﴿أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: احذر منهم أن يصرفوك ويبعدوك عن بعض شرع الله الذي أنزله الله عليك.

ولهذه الآية.. قصة.. ملخصها: أن فريقًا من اليهود في المدينة ذهبوا إلى النبي ﷺ؛ ليفتنوه عن دينه، وقالوا: يا محمد، قد عرفت أننا أحبار اليهود، وأشرافهم، وأنا إن اتبعناك: اتبعنا اليهود، ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين قومنا خصومة وستحاکم إليك، فاقض لنا عليهم، نؤمن بك ونصدقك، فأبى رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، فتولوا عنه. لذا يقول رب العزة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عنك، وعن الحكم بما أنزل الله إليك، وأرادوا غيره: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ ومنها: التولي عنك، ورفض حكم الله، ويجازيهم عليها جميعًا، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله تعالى، وبعيدون من رحمته.

عجيب!! ما لهؤلاء القوم يتولون عنك، وعن حكم الله!!

﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ والمعنى: ماذا يريد هؤلاء الناس؟ أيريدون حكمًا غير حكم الله؟!!! ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي: يطلبون؛ إذ يرفضون حكم الله العالم العادل سبحانه وتعالى. فليخبرونا إذا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾!! إنه: لا أحسن أبدًا من حكم الله حكمًا ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ حيث إنهم الذين يثبتون، ألا عدل من الله، وألا أحسن من حكمه حكمًا.

وبعد هذا، ينهى ربنا تبارك وتعالى عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، فيقول جل وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

قيل في سبب نزول لهذه الآية: أنه لما كانت وقعة أحد، اشتد الأمر على طائفة من الناس، فقال أحد رجلين لصاحبه: إني ذاهب إلى فلان اليهودي، أوي إليه، وأتهود معه؛ لعله ينفعني إذا وقع أمر، أو حدث حادث.

وقال الآخر: أما أنا، فإني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام، فأوي إليه، وأتصّر معه، فأنزل الله هذه الآية.

وقيل: غير ذلك من الأسباب في نزولها، ولكن العبرة - كما يقول العلماء - بلفظ الآية العام، وليس بسبب نزولها الخاص.

ومعنى الآية: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ تنصرونهم، وتطلبون نصرتهم، وتأنسون إليهم، وتعاشرونهم معاشرة المسلمين، والسبب أن: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ حيث إنهم متحذون في الكفر، والكفر كله ملة واحدة، يعادي أهله الإسلام والمسلمين، على ذلك: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَهُمْ﴾ أي: من جملتهم، ومن أهل دينهم، وهم في هذه الحالة: من الظالمين، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يرشدهم إلى الصواب، فيقعون في الضلال والضياغ.

ثم بيّن ربنا الحكيم العليم: كيفية هذه الموالة، وسيبها، وما تؤدي إليه، فيقول عز وجل:

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَلِدِيمِينَ﴾ (٥٢)

يعني: ترى هؤلاء الذين يوالون اليهود والنصارى، وهم الذين في قلوبهم مرض ﴿يُسْرِعُونَ﴾ بالمبادرة في معاونتهم، أو اللجوء إليهم، أو طلب نصرتهم، وهم ﴿يَقُولُونَ﴾ لأنفسهم، أو للمؤمنين، أو لليهود والنصارى: ﴿نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ يعني: نخاف أن تصيب المسلمين هزيمة، أو ينزل بهم مكروه، وهنا: يرُدُّ الله عليهم، ويقطع عنهم الباطلة، وأطماعهم الفارغة، ويشر المؤمنين بالنصر والغلبة.

حيث يقول: ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ بالنصر وإظهار الدين، وهذا وعد من الله لا يتخلف؛ ﴿فَعَسَىٰ﴾ إذا كانت من الله: فهي وعد لا يتخلف، كما يقول العلماء، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ بهتك ستر هؤلاء المسارعين لموالة اليهود والنصارى، وفي هذه الحال: ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من الشك وموالة أعداء الله ﴿تَلِدِيمِينَ﴾.

وأما الذين آمنوا: فيُصَوِّرُ الله موقفهم آنذاك بقوله تعالى:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَاهْتُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

يعني: إذا انتصر المسلمون، وانكشف المنافقون، وفضح الله سترهم، وكشف كذبهم ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وثبتوا على الإيمان، ولم يوالوا أعداء الله، لبعضهم البعض، متعجبين: ﴿ءَاهْتُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: أليس هؤلاء الذين فضحهم الله هم ﴿الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ﴾ لكم بأغلظ الأيمان: أنهم أولياؤكم ضد أعدائكم؟ يقول تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ ضاعت أعمالهم؛ لأنها كانت رياءً وسمعة، ولم يكن فيها صدق لله تعالى ولا إخلاص، ﴿فَأَصْبَحُوا خٰسِرِينَ﴾ في الدنيا بالفضيحة وسوء الحال، وفي الآخرة بالعقاب وسوء المآل.

وبعد أن انتهى ربنا ﷻ عن موالاته الكافرين، حيث إنها من طرق الارتداد عن دين الله، بدأ في بيان حال المرتدين عموماً، حيث يقول جل وعلا:

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ ۖ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكٰفِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذٰلِكَ فَضَّلَ اللّٰهُ يَوْمِيهِۦ مَنْ يَشَآءُ ۗ وَاللّٰهُ وَّاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

ومعنى الآية: الإخبار بما علم الله تعالى وقوعه من ارتداد بعض الناس، وقد ارتدت جماعة بعد موت النبي ﷺ، ولا يزال البعض يرتد كذلك، وإن كانوا قلة لا يؤبه لها.

يقول تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِۦ﴾ الإسلام، ويعود إلى الكفر فلا وزن له، ولا أثر منه، وضرره على نفسه؛ حيث إن دين الله غالب، وأمر الله ظاهر، وأيضاً: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ﴾ بدلاً منه ﴿بِقَوْمٍ﴾ هذه أوصافهم:

- ١ - ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ أي: يلهمهم الطاعة، ويشبههم عليها، ويريد لهم خيري الدنيا والآخرة.
- ٢ - ﴿وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ أي: يطيعون أوامره، ويتبعون عن معاصيه.
- ٣ - ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع، كما في قوله تعالى: ﴿وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلٰلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

٤ - ﴿عَزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: متغلبين عليهم، مترفعين عن دناءتهم، وهي عزة عن قوة لا عن ضعف وعجز.

٥ - ﴿بُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لنصرة دينه، وحماية أوليائه، وإعلاء كلمته، وحالهم في جهادهم هذا، وفي كل أحوالهم، أنهم:

٦ - ﴿لَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ في القتال في سبيل الله، أو في أمر يخص دين الله. ويلاحظ: أنه في عصرنا هذا تزداد حملات الإعلام العالمي ضد الجهاد في سبيل الله، وأمله، كما يلاحظ: أنه في عصرنا - أيضًا - تزداد حملات الملامة والانتهاكات، ضد من يجاهدون في سبيل الله.

ومن هنا: يدرك المسلم ضرورة التحقق بهذه الصفات، التي ذكرها الله في كتابه الكريم الخالد.

على كل حال: هذه الصفات المذكورة: فضل من الله، حيث يقول سبحانه: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ألا فليتعرض لفضل الله من يبتغيه!! ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع الفضل، عليم بمن يستحقه.

وبعد أن ذكر الله تعالى من يجب عدم موالاتهم، يذكر - تبارك وتعالى - من تجب موالاتهم، حيث يقول للمؤمنين:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾

ومعنى الآية: أنه إذا كنت نهيتكم عن موالاته اليهود والنصارى، فإن ﴿وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ وهذا هو الأصل لا وليي لكم سواه، ويتبعه في ضرورة موالاتكم له ﴿وَرَسُولُهُ﴾ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ المتصنفون بأنهم ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وهم خاشعون لله متواضعون له سبحانه، راغبون في الإحسان، مسارعون إليه.

يروى في سبب نزولها: أن عبد الله بن سلام جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إن قومنا قريظة والنضير هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا.

فنزلت هذه الآية.. فقرأها عليه رسول الله ﷺ، فقال عبد الله بن سلام: رضينا بالله رباً، وبرسوله نبياً، وبالمؤمنين أولياء. يقول الله تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٥٦)

والمعنى: أن من يمتثل ويتبع شرع الله، و﴿يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بإعانتهم، ونصرتهم، والاستنصار بهم، واللجوء إليهم: فهو من حزب الله، وأحبابه، وأوليائه، إضافة إلى ذلك: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ بالحجة والبرهان، دائماً، وأحياناً بالصلوة والسنان، كما غلب حزب الله في غير مرة، في عهد رسول الله ﷺ، وغيره.

ومرة أخرى: ينهى ربنا عن اتخاذ أعداء الله أولياء، فيقول جل جلاله:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٥٨)

ومعنى الآية: النهي للمؤمنين عن موالاة الذين يهزءون ويسخرون من الدين الإسلامي ومبادئه وشعائره، ويعتبرونها لعباً وعبثاً، سواء كان هؤلاء الذين يهزءون من اليهود، أو النصارى، أو الكافرين عامة، من: ملحدين، وشيوعيين، وبوذيين، وهندوس، وغير ذلك.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: خافوا الله يا مؤمنون، واتركوا الولاء لهم ومعهم، ﴿إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقاً؛ حيث إن موالاة هؤلاء: تتنافى مع الإيمان الصادق.

هؤلاء: ﴿إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ رفعتم الأذان بها، أو قمتم إلى الصلاة، أو دعوتموهم إليها: سخروا منكم و﴿اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا﴾، ﴿ذَلِكَ﴾ سبب ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنه لو كان لديهم عقل يستعملونه، وفكر يتفكرون به: ما فعلوا ذلك، بل آمنوا وانتفعوا. ثم يقول الله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَسِيفُونَ﴾ (٥٩)

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب، ﴿يَأَيُّهَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى، ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾ تنكرون منا، وتعيبون علينا شيئاً، ﴿إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: إلا

إيماننا بالله تعالى، وإيماننا بالقرآن الذي أنزل علينا، وإيماننا بالكتب التي أنزلت على الأنبياء السابقين، واعلموا يا أهل الكتاب أن هذا الإنكار علينا في إيماننا ما له من سبب، إِلَّا ﴿أَنْ أَكْذَرَكُمْ فَسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله ﷻ، ولذا: لا يلتفت إلى إنكاركم؛ لأن الإيمان لا عيب فيه ولا مذمة عليه.

ثم بيّن ربنا ﷻ ما هو أشد وأشر من فسقهم، حيث قال:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٦٠)

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء الفاسقين، الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ أَهْلِ ذَلِكَ﴾ الذي تنقمون، وتنكرون ..؟ هو ﴿مَن لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أبعد من رحمته، ﴿وَعَظِبَ عَلَيْهِ﴾ غضباً لا يرضى بعده أبداً، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ يروى أن الذين مُسخوا قرده: كانوا من اليهود أصحاب السبت، وأن الذين مسخوا خنازير: كانوا من الذين كفروا بعبسى ﷺ بعد نزول المائدة، ﴿وَمَنْ عَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ أي: أطاع الشيطان، وعبد ما زينه له من العجل، وغير ذلك، ﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ لأن مكانهم النار ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ عن طريق الحق، والصراف المستقيم.

ثم يقول الله ﷻ لنبيه ﷺ، عن ذرية هؤلاء اليهود، الذين لعنهم الله، وغضب عليهم ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾:

﴿وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (٦١)

والمعنى: إذا جاءك منافقو اليهود ﴿قَالُوا﴾ نفاقاً ﴿ءَامَنَّا﴾، والحقيقة: أنهم دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين، دون أن يؤمنوا صدقاً، لا في دخولهم عليك، ولا في خروجهم من عندك، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ ويخفون من النفاق.

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٢)

أي: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا﴾ من هؤلاء اليهود، ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْأَثْمِ﴾ أي: يبادرون إلى المعصية، ﴿وَالْعُدْوَانَ﴾ يعني: في الظلم والبغي، مُسَارِعَةً تَدُلُّ عَلَىٰ تَلَذُّذِهِمْ بِفِعْلِ هَذِهِ الْمَعَاصِي، وارتكابهم هذا الظلم.

وكذلك يسارعون في: ﴿أَكْلِهِمُ السُّحْتِ﴾ أي: الحرام، وبخاصة الرشوة. ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: بئس العمل عملهم، والأكل للسحت أكلهم، والعدوان عدوانهم، والمعصية معصيتهم. هؤلاء يفعلون ذلك: لأن علماءهم لم ينهوهم عنه. ولذلك يوبخ الله علماءهم بقوله:

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١١٣)

والمعنى: هلاً نهاهم علماءهم وفقهاؤهم عن هذه الأشياء التي منها: ارتكابهم الإثم، والعدوان، وأكلهم السحت!! ولكنهم ما فعلوا!! ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ من السكوت عنهم، وعدم نهيهم عن هذه الأمور القبيحة.

وفي الآية - كما يقول العلماء - ذم لعلماء المسلمين على توانيهم في النهي عن المنكرات. ويقول ابن عباس رضي الله عنه: هذه أشد آية في القرآن على العلماء.

ويقول الضحاك رضي الله عنه: ما في القرآن آية أخوف عندي منها.

قال رجل من اليهود لمحمد صلى الله عليه وسلم: إن ربك بخيل لا ينفق؟! فأنزل الله تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِعِنَّا بِمَا قَالُوا بَلَىٰ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسِعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١١٤)

والمعنى: قال رجل من اليهود ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ومع أن القائل لهذا الكلام واحد: إلا أن الجميع سكت، ورضي قوله، فكأنهم قالوه جميعاً، ولذلك قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ

الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴿٦٤﴾ أي: بخيلة لا تنفق، وليس المراد: أنها مربوطة، فدعى الله عليهم بالبخل.. فكانوا أبخل الناس، كما أن أيديهم تُغَلّ وتربط في جهنم.
يقول تعالى: ﴿غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وفوق ذلك ﴿وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا﴾ أي: عليهم لعنة الله تعالى، بسبب قولهم هذا، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ رد عليهم، وإثبات غاية السخاء له تبارك وتعالى، ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من توسيع على هذا، وتضييق على ذلك، دون اعتراض من أحد، أو مقدره على منع هذا أو ذاك من أحد. ثم تحدّث عن علمائهم فقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي: وليزيدن القرآن، وما فيه من تشريعات خالدة، وآيات باهرة، كثيرًا منهم، بسبب حسدهم لك، وحقدهم عليك ﴿طُغْيَانًا﴾ أي: تماديًا في الجحود لرسالتك ﴿وَكُفْرًا﴾ بك وبما أنزل عليك .

هذا ﴿و﴾ قد ﴿الْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ حيث إن كلامهم مختلف، وقلوبهم شتى، ولا يكون بينهم اتفاق ولا تماسك إلا ظاهري فقط، وهذا الوضع فيهم، والعداوة بينهم: مستمر ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فيلاقون جزاءهم، وينالون عقابهم. وبسبب هذا الوضع من العداوة والبغضاء بينهم، فإنهم ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ أي: لحرب الله ورسوله، أو لحرب الإسلام وأهله، أو كلما أرادوا إشعال نار الحرب لهذا الغرض، ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أي: نصر الله رسوله والمسلمين عليهم، أو أطفأ الله كيدهم وشرهم.

ويلاحظ: أنه ما غلب هؤلاء في عصرنا - في بعض المعارك - إلا لأنهم يحاربون رايات لم تقم على تقوى، ولم تنتصب لنصر الإسلام، ورفع رايته.
كما أنهم ما غلبوا - حينما يغلبون - إلا بحبل أي: بسبب من الله، وسبب من الناس. ولأنهم فشلوا، ويفشلون، في ميدان القتال، فإنهم: ﴿يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في أرض المسلمين ﴿فَسَادًا﴾، وذلك: بنشر الفاحشة حيث كانوا وحيث استطاعوا، وقتل أخلاق الشعوب، ومقاومة الخير فيهم، ونشر أفكار الضلال والكفر بينهم.
﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولذلك: فإنه لا يحبهم، بل يبغضهم ويلعنهم، ويعاقبهم.

كلمة هادئة ناصحة يقولها رب العزة لليهود والنصارى، على لسان محمد ﷺ:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

ومعنى هاتين الآيتين: أنه بالنسبة للآخرة ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ءَامَنُوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿وَاتَّقَوْا﴾ عذاب ربهم: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ لسترنا عليهم سيئاتهم التي اقترفوها، ولم نؤاخذهم عليها، ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ﴾ بسبب إيمانهم وتقواهم ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

وأما بالنسبة للدنيا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ يعني: عملوا بأحكامهما، وطبقوا حدودهما، ولم يحرفوهما، وينكروا ما فيهما من وصف محمد ﷺ، والبشارة به، وكذلك: أقاموا ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ من الكتب، ومنها القرآن الكريم، ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي: لو سَعَّ الله عليهم خير الدارين، دون خوف، أو هم، أو ضيق نفسي.

فهل فعلوا ذلك؟ يعني: هل ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿وَاتَّقَوْا﴾، و﴿أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ من الكتب؟ الواقع يقول: لا، حيث كان ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ عادلة، مؤمنة، سالحة، ولكنها قليلة، كعبد الله من سلام، وأمثاله، ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بس العمل الذي كانوا يعملون، وهو كفرهم.

بعد أن بيّنت الآيات الفائتة ضرورة الاحتكام إلى ما أنزل الله، وأوجبت - كذلك - الاحتكام إلى القرآن الكريم، ثم بيّنت آثار بركة ذلك على الحياة في الدنيا وفي الآخرة، تأتي الآيات التالية أمرة محمدًا ﷺ ببلاغ ما أنزل الله، وخاصة بلاغه لأهل الكتاب، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ سَأَلْتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

ومعنى الآية: يا محمد، يا رسولي بلغ إلى الناس كلهم، جميع ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ غير مراقب في هذا التبليغ أحدًا، ولا خائف أن ينالك مكروه من أحد، ﴿وَإِنْ

لَمْ تَفْعَلْ ﴿٦٧﴾ وتبلغ جميع ما أنزل إليك، ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ لأن كتمان البعض، ككتمان الكل. ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أن يقتلوك.

وهذا: لا ينافي أن يصيبه منهم مكروه، أو أذى كما حدث في أحد، حينما كُسرَت رباعيته ﷺ، وشُجَّ في وجهه، وقد غيَّرت هذه الآية بعض سلوك النبي ﷺ حيث كان يحرسه بعض أصحابه، خوفاً عليه.

فلما نزلت: قال ﷺ: «انصرفوا عني، فقد عصمني الله» وصار ﷺ بلا حراسة. يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: إلى ما يريدون بك من الإضرار، ولا إلى من كتب عليه الضلال إلى الهداية. وقد امثل النبي ﷺ لهذا الأمر بالبلاغ، وقام به أتم قيام. وفي سياق الأمر بالتبليغ يقول ربنا ﷻ للنبي ﷺ:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الدين يعتد به، ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ بالإيمان بكل ما فيهما، والعمل بكل ما فيهما، ومن ذلك: الإيمان بمحمد ﷺ، كما بشر به كل منهما، وكذلك: الإيمان والعمل بما: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ﴾ بعدهما، وهو القرآن، الكتاب السماوي، الخالد، الخاتم.

واعلم يا محمد أنه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا﴾ بسبب حقدهم عليك وحسدكم لك، كلما نزل شيء من القرآن ازدادوا تمادياً وعناداً وكفراً، ولأنك تريد لهم الهداية، ومنهم الإيمان، وتحزن من أجلهم أقول لك: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا تحزن ولا تأسف إن لم يؤمنوا بك، فإن ضررهم على أنفسهم لا عليك. وفي قاعدة عامة يقول ربنا سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

والمعنى: كل فرقة من: المؤمنين، واليهود، والصابئين، والنصارى اتصفت بهذه الصفات
الثلاث، وهي: الإيمان بالله تعالى، وباليوم الآخر يوم الجزاء يوم الدين، وعملت عملاً
صالحاً، ومن المعلوم: أنه لا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً لشريعة محمد ﷺ، بعد
أن أرسل صاحبها إلى جميع الثقليين من الإنس والجن، يعني: أصبحوا مسلمين.
في هذه الحالة كل فرقة: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما هوأت، ﴿وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ﴾ على ما فات.

والصابئون قيل: هم قوم كانوا يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون كل سنة ثلاثين يوماً
إلى آخره، وقيل فيهم: غير ذلك. ويذكر الله اليهود وحدهم بقوله:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ
رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

والمعنى: بين الله تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل بالسمع والطاعة لله
ولرسله، كما أنه ﷺ أرسل إليهم رسولاً يعلمونهم شرائع ربهم، وأحكامه، وكان في هذا
الكفاية - كل الكفاية - أن يؤمنوا، وأن يقولوا سمعنا وأطعنا، ولكنهم كانوا: ﴿كُلَّمَا
جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ من هؤلاء الرسل ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ﴾ ولا يرغبون فيه ولا
العمل به من الشرائع: لم يؤمنوا، ولم يفعلوا ما أمروا به، بل كانوا: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾
أنبياءهم، وأنكروا ما جاءوا به أنه من عند الله، ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي: زاد على
التكذيب القتل، كمن قتلوا زكريا ويحيى ﷺ.

والعجيب أنهم ظنوا أن لا يصيبهم من الله عذاب، بسبب هذا التكذيب، وهذا القتل،
للأنبياء، يقول الله تعالى:

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا
وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

يعني: ظنوا أن لا يكون بلاء لهم، وعذاب بهم، والسبب في ذلك الظن السيئ أنهم:
﴿عَمُوا﴾ عن الرشد أعينهم ﴿وَصَمُوا﴾ عن الوعظ آذانهم.

ولذلك: لم يعملوا بما رأوا من الآيات، ولا بما سمعوا من المواعظ، ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: رزقهم التوبة، فتابوا، ولكنهم بعد فترة، ولخسة طبعهم ﴿عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: صارت غالبيتهم عميًا وصمًا، فلم يعد ينفع فيهم شيء. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بصير بأعمالهم ومواقفهم وعنادهم، وسيجازيهم على ذلك كله. ثم يذكر الله تعالى النصراني، وحدهم بقوله عز وجل:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾

ومعنى الآية: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ من الملكية، واليعقوبية، والنسطورية، وهي من فرق النصراني، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: إن مريم عليها السلام، ولدت إلها، ومعنى هذا عندهم - كما يقول أبو السعود رحمته الله - أن الله تعالى حلَّ في ذات عيسى، واتحد بها.

﴿و﴾ قد ﴿قَالَ الْمَسِيحُ﴾ بنفسه لهم مكذبًا مزاعم من يدعي ألوهيته عليه السلام، ﴿يَبْنَىٰ إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ ولم يفرِّق بينه وبينهم في أنه عبد مريبوب لله؛ ليكون ذلك حجة على النصراني أيضًا، وكل من يزعمون ألوهيته، يا بني إسرائيل ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ في عبادته غير الله ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ التي هي دار الموحدين، ومنعه من أن يدخلها ﴿وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾ أي: صار مأواه ومسكنه ومرجعه النار، التي هي دار الكافرين المشركين، وساعتها ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ﴿مِنَ أَنْصَارٍ﴾ يمنعونهم من دخول النار، أو يدفعون عنهم عذابها، أو يخرجونهم منها. ثم يقول تعالى أيضًا:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَكَمَا مِنَ اللَّهِ إِلَهًا إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

ومعنى الآية: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ من طوائف النصراني، وهم:

النسطورية، والمرقوسية: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي: ثالث آلهة ثلاثة، هو: أحدها، والآخران: عيسى وأمه عليهما السلام، وهذا تفسير لقضية التثليث عند النصارى.

وهناك تفسير آخر: هو أن النصارى يقولون: إن الإله.. جوهر واحد، مركب من ثلاثة أقانيم: الأب، والإبن، وروح القدس.

وهذه الثلاثة: إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص، والشعاع، والحرارة.

وهم يقصدون بالأب: الذات، وبالإبن: الكلمة، أي: كلام الله، وبالروح: الحياة.

وقالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى، اختلاط الماء باللبن.

وزعموا: أن الأب إله، والإبن إله، والروح إله، والكل إله واحد.

والحقيقة: ما يقوله الله تعالى على لسان عيسى نفسه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي: وما من إله قط في الوجود، إلا إله موصوف بالوحدانية، لا ثاني له ولا ثالث، وهو الله وحده، لا شريك له.

﴿وَإِنْ لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من هذه الافتراءات والأكاذيب، ﴿لَيَمَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: ليمسن المصيرين على الكفر منهم، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم شديد الإيلام.

ويلاحظ: أن الله تعالى لم يقل: (ليمسنهم) بل قال: ﴿لَيَمَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ لأن منهم من أسلم قبلاً، ومنهم من يسلمون الآن إلى يوم الدين. ثم يقول تعالى:

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٤)

والمعنى: ﴿أفلاً﴾ ينتهون عن تلك العقائد الفاسدة، والمزاعم الباطلة، و﴿يتوبون﴾ إلى الله ﴿ويرجعون عنها، ويتخلصون من أوزارها﴾ ﴿ويستغفرونه﴾ أي: يطلبون منه المغفرة على اعتقادهم فيها، وتمسكهم بها.

﴿والله عفورٌ﴾ يقبل توبتهم، ويغفر لهم، ﴿رحيمٌ﴾ بهم، يدخلهم في رحمته وعفوه. والحقيقة التي لا محيد عنها، في شأن المسيح وأمه ما يقوله رب العزة:

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ بُنِيتَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَيُّ يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥)

والمعنى: ليس ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فهو يمضي وينتهي مثلهم، وليس بإله كما يزعم الزاعمون، وإلا ل بقي خالدًا أبدًا، ولم يمض كما مضى الذين سبقوه من البشر، ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: وما أمه - أيضًا - إلا كسائر النساء، اللاتي يوصفن بالصدق لملازمتهن له، ولهذا فما رتبتهما - المسيح وأمّه - إلا رتبة بَشْرَيْنِ أحدهما نبي، والآخر صحابي، فمن أين لكم بهذه الألوهية المزعومة، خاصة وأنهما: ﴿كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ كغيرهما من البشر، ومَن كان كذلك: لا يكون إلهاً أبدًا، لتركيبه وضعفه، وما ينشأ منه من البول والغائط.

﴿أَنْظَرُ﴾ وتعجّب، ﴿كَيْفَ بُيِّنْتَ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ والدلائل، على وحدانيتنا، ﴿ثُمَّ أَنْظَرَ أَنَّى﴾ للأعجب منه ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق مع قيام البرهان، ووضوح البيّنات عليه.

وبعد هذا التعجّب من أحوالهم، يأمر ربنا ﷺ بتبكتهم وتوبيخهم، حيث يقول له:

﴿قُلْ أَنْعَبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٦)

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد لم ﴿تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: غيره ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وهو عيسى عليه السلام؟ يا هؤلاء ﴿أَنْعَبُدُونَ﴾ غير الله، والحال أن الله سبحانه، هو المستحق للعبادة؛ لأنه يسمع كل شيء، ومن ذلك أقوالكم، ويعلم كل حال، ومن ذلك أحوالكم، إن كنتم تعقلون: كفوا عن ذلك.

ثم يأمر الله رسوله ﷺ أن ينهى أهل الكتاب عن المبالغة والعُلُو، اقتداءً بشيوخهم في الضلال، فيقول له:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٧)

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى، ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ فقد تجاوزوا الحد في شأن عيسى عليه السلام.. حيث وضعه

اليهود عن مقام النبوة، ورفع النصارى إلى مقام الألوهية، وهذا غلو غير الحق، وهو باطل.
﴿يَتَاهَلَّ الْكِتَابُ﴾ من اليهود والنصارى ﴿لَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا
مِنْ قَبْلُ﴾ بغلوهم وهم أجدادكم ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من الناس أتوا من بعدهم،
ولا يزالون في ضلالهم ﴿وَضَلُّوا﴾ أي: هؤلاء الأجداد، ومن تبع أهواءهم ﴿عَنْ سَوَاءِ
السَّبِيلِ﴾ حين كذبوا - ولا يزال أتباعهم - رسول الله ﷺ؛ حسداً وبغياً.
ويخبر ربنا - تبارك وتعالى - أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من زمن بعيد، حيث
يقول الحق سبحانه:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ
مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾
والمعنى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ من اليهود والنصارى،
وكان ذلك: ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ﴾ الذي لعن اليهود، بأن دعا عليهم، فمسخوا قرده،
وهم أصحاب السبت - وستأتي قصتهم في «الأعراف» - وأيضاً: على لسان
﴿عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الذي لعن النصارى، بأن دعا عليهم، فمسخوا خنازير، وهم
أصحاب المائدة - وستأتي قصتهم في «آخر السورة» - ، وكان هذا اللعن، وتلك الإجابة
﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: بسبب عصيانهم وأوامر الله، واعتداءاتهم على
أنبياء الله .
كما أنهم:

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾
يعني: وكان هذا اللعن ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]
بسبب أنهم كانوا لا ينهون بعضهم بعضاً عن فعل المنكر، ولا عن معاودة فعله، وهذا
فعل بئس سيئ كانوا يفعلونه، ولا أبأس ولا أسوأ منه.

يقول الإمام النسفي رحمه الله: وفي ذلك دليل على أن ترك النهي عن المنكر من
عظائم الأمور.

ثم أخبر رب العزة نبيه ﷺ عن بعض سوءاتهم، ونتائجها السيئة عليهم بقوله عز
وجل:

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠)

والمعنى: ﴿تَرَىٰ﴾ يا محمد ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب، اليهود والنصارى ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ أي: يوالون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الملاحدة، والشيعيين، وغيرهم، ويتركون موالاتة المؤمنين، أهل الكتاب السماوي الخاتم.

﴿لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ إن كانوا يريدون لها خيراً، حيث إن هذا الذي قدمته لهم أنفسهم: ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ما يوجب سخط الله عليهم، بسبب موالاتهم للكافرين، ومعاداتهم للمؤمنين، وكذلك ﴿فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ أي: في نار جهنم، هم ماكثون وبقاؤون أبداً، لا يستريحون فيها، ولا يخرجون منها. ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٨١)

والمعنى: ولو كان هؤلاء المنافقون من اليهود والنصارى يؤمنون حقاً بالله تعالى ﴿وَالنَّبِيِّ﴾ جنس النبي، ويشمل موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم جميعاً، ويؤمنون بـ ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ إلى كل نبي بما في ذلك القرآن ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿أَوْلِيَاءَ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله، ولذلك: لم يؤمنوا بالله، ولا بالنبي، ولا بما أنزل الله، واتخذوا الكفار - لأنهم على شاكلتهم - أولياء.

بعد ذكر أهل الكفر من اليهود والنصارى وغيرهم، وكفر هؤلاء وهؤلاء: يخبر الله تعالى عن مدى عداوة هؤلاء وهؤلاء للمسلمين، فيقول جل جلاله:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ قَائِلُونَ﴾ (٨٢)

والمعنى: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ يا محمد ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ﴾

وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴿٨٣﴾ لأن كفر اليهود والمشركين: كفر عناد وجحود، ومباهاة للحق، وغمط للناس، وتقصُّص لحملة العلم.

ولذلك: قتلوا كثيرًا من الأنبياء، حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة، وسَمُّوه، وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين.

ويلاحظ: أن الله تعالى جعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين، كما نبه على تقدُّم قدمهم في العداوة بتقديمهم على المشركين في الذكر بالآية الكريمة، وكان ذلك على عكس النصارى، الذين قال فيهم سبحانه وتعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّكُمْ﴾ من أتباع المسيح ﷺ، وعلى منهج إنجيله، وأنصار دين الله، حيث إنَّ فيهم: مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك: إلا لما في قلوبهم؛ إذ كانوا على دين المسيح من الرقة، والرأفة، وبسبب وجود علماء فيهم.

يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ﴾ أي: علماء وعُبَاد، ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: فيهم تواضع واستكانة، على خلاف اليهود.

ثم بيَّن القرآن - كذلك - بعض صفات هؤلاء النصارى، فيقول جل جلاله:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٨٣﴾

يُروى: أنَّ قومًا كانوا على دين عيسى ابن مريم، فلما رأوا المسلمين، وسمعوا القرآن، أسلموا، ولم يتلعثموا، فنزلت هذه الآيات.

والمعنى: أن هؤلاء النصارى - الذين تتحدث عنهم الآيات - ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ وهو القرآن ﴿تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ بكاءً وتأثرًا؛ لرقه قلوبهم، و﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: بعض الحق، الذي سلم من التحريف، أو قبل التحريف لكتبهم، ولذلك: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا﴾ بمحمد - ﷺ -، ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ عرفوا وصف هذه الأمة، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] يوم القيامة، فطلبوا أن يجعلهم الله منهم، وأن يكتبهم معهم، مع أمة محمد ﷺ.

وَكأنَّ مِنْكَرًا يَنْكُرُ عَلَيْهِمْ إِيمَانَهُمْ هَذَا!! فيقولون:

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٤)

أي: وما المانع لنا: في أن نؤمن بالله الواحد، بعد أن ظهر الحق الناصع بنزول القرآن، وأن نطمع في ﴿أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ الجنة ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ المؤمنين.

لهذا يقول رب العزة:

﴿فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٥)

والمعنى: فكانت النتيجة أن الله تبارك وتعالى يخبرنا عن إكرامه لهم: ﴿فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ بسبب إيمانهم وتصديقهم، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً، لا يتحولون عنها، ولا يخرجون منها، ﴿وَذَلِكَ﴾ النعيم المقيم، ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ من النصارى، الذين عرفوا الحق، فأمنوا به، واتبعوه.

وحتى لا يفهم أحد أن هذا الشاء، وذلك الجزاء للنصارى جميعاً، فقد عقب المولى على ذلك بقوله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٨٦)

وهذه الآية: وعيد وتهديد لمن بقي على كفره بالله من أهل الكتاب وتكذيبه لمحمد ﷺ.. ومعناها: أنه إذا كان المؤمنون المصدقون المخلصون منهم، لهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [المائدة: ٨٥] فإن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ منهم هم ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ التي يخلدون فيها.

كان الكلام ابتداءً من قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] منصباً على تبليغ الكافرين، ومن هنا يبدأ الكلام في تبليغ المؤمنين، بطريقة فيها كثير من التفصيل لما هو مجمل في أول السورة، حيث يقول الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧)

والمعنى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ما لذ وطاب من الحلال، الذي أحله الله لكم، مبالغة منكم وزهدًا وتقشفًا.
 ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي: لا تتجاوزوا حدود ما أحلَّ الله لكم، وما حرم عليكم، سواء بتحريم، أو تحليل، أو إسراف، حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين حدوده.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨)

والمعنى: تمتعوا بأنواع الرزق، الحلال الطيب، سواء كان أكلاً أو غيره. ويلاحظ: أنه تعالى خصَّ الأكل بالذكر؛ لأن أغلب الانتفاع بالرزق يكون أكلاً. كما يلاحظ: أن المولى سبحانه نهى عن تحريم الطيبات في الآية السابقة، ثم أمر بالأكل منها، والانتفاع بها هنا.
 ثم يقول: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: بالوقوف عند شرعه، فيما أحلَّ، وفيما حرم ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: فاتقوه، وإن كنتم تتقونه، فالتزموا بشرعه، في الحلال، وفي الحرام.

ولأن التحريم لما أحلَّ الله وأباح من الطيبات يكون باليمين عادة. فناسب أن يذكر حكم الأيمان هنا بقوله عز وجل:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْاَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ ۗ وَإِطَعْتُمْ عَشْرَةَ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا نَطَعْتُمْ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُمْهُمْ أَوْ تَحْرِيرِ رَقَبَةٍ ۗ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۗ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۗ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٨٩)

وسبب نزولها: أنهم كانوا يحلفون على تحريم الطيبات، ويظنون أنه قرينة إلى الله، فلما نزل النهي عن تحريم الطيبات: قالوا كيف بأيماننا، التي كنا نحلفها، فنزلت ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

واليمين اللغو هو: ما يجري على اللسان من غير قصد، مثل: لا والله، وبلى والله، كما يرى الإمام الشافعي رحمه الله.

أو ما يحلف المرء عليه ظاناً أنه كذلك، وهو خلاف ما يرى، عند الإمام أبي حنيفة رحمه الله.

وحكمه: كما بيّنته الآية: لا شيء فيه، ولا ذنب عليه، وإن كان الكفُّ عنه أولى وأولى.
وهذا هو النوع الأول - من الأيمان - الذي ذكرته الآية.
والنوع الثاني: ﴿بِمَا عَقَدْتُمْ الْأَيْمَانَ﴾ أي: الأيمان التي تعقدونها وتؤكدونها بالقصد والنية.

وحكم هذه إذا حنثتم فيها، أو أردتم الحنث فيها، الكفارة التي تستر هذا الخطأ، وتمحو آثاره.

والكفارة لمن حنث، أو أراد الرجوع فيما حلف عليه ما يلي: ﴿فَكَفَّرْتَهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ إطعامهم كل واحد منهم طعام يوم كامل مما يطعم منه أهله في المعتاد، بلا تقتير ولا تبذير، ﴿أَوْ كَسْوَتُهُمْ﴾ وأدنى الكسوة: ثوب يوارى العورة.

ونرى أنه: يجب أن يكون مما يناسب حاله، ويقيه الحر والبرد.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: عتق رقبة، مؤمنة، أو غير مؤمنة على خلاف بين الأئمة.

والحانث في يمينه، أو الذي يريد الحنث في يمينه: محيّر بين واحدة من هذه الثلاث.

ويلاحظ: أن المولى بدأ في هذه الثلاث بالأسهل، ثم ترقى إلى الأصعب منها، لمن يرجو الأجر من الله تعالى، فإن لم يجد الحانث، أو لم يقدر على واحدة من هذه الثلاث ماذا يفعل؟

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعات، أو غير متتابعات، على خلاف بين الأئمة، ولكن النص القرآني - كما هو واضح - لم يقيد لا بهذا ولا بذلك، وعلى هذا يجزئ التتابع في الصيام، وعدمه كذلك، هذا الكلام عن الكفارة، والكفارة ذاتها لا تكون إلا بعد الحنث في اليمين.

يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ما ذكر عن الكفارة لليمين المنعقدة، ﴿كَفَّرةٌ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: هو كفارة الحنث في أيمانكم التي حلفتُموها، وحشتم فيها.

والأفضل لكم ما يقوله المولى: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بعدم الحلف أصلاً، أو بنفاذ اليمين إن كان الحلف على خير، أو بالتكفير عن الحنث فيها إن كان في الحنث فيها خيراً، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ وأحكامه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ذلك البيان ربكم سبحانه وتعالى.

لما نزل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧].

وكذلك: قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٨].

وكانت الخمر والميسر ممَّا يُسْتَطَابُ عندهم، فقد بيَّن رب العزة أنهما غير داخلين في جملة الطيبات التي أحلها الله تعالى، وذلك في قوله تبارك وتعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠)

ومعنى الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هذه الأشياء الأربعة محرمة؛ لأنها من الأمور القبيحة التي يزينها الشيطان للإنسان، وهي: ﴿الْخَمْرُ﴾ أي: كل مُسَكَّرٍ يُخَامِرُ العقل ويغطيه عن الوعي، ﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ أي: القمار، وهو اللعب بما يلهي، وُسْمِيَ القمار ميسرًا؛ لأن فيه أخذ المال بيسر، ﴿وَالْأَنْصَابُ﴾ أي: الأصنام، التي تنصب وتُقام، وتُعبَد، ﴿وَالْأَزْلَامُ﴾ أي: القداح، التي كانوا يستفتحون بها أعمالهم وتجاراتهم وسفرياتهم، وكانوا يلتزمون بتوجيهها الأعمى، وما دام ذلك ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ وما دام محرَّمًا ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

ويلاحظ في الآية الكريمة: أن الله ﷻ ضمَّ في التحريم إلى الخمر والميسر، الأنصاب والأزلام، مع أن المؤمنين يعلمون حرمة ذلك جيدًا، ولا يفعلونه؛ حيث إنه تعالى يؤكِّد بذلك حرمة الخمر والميسر، بطريق أشدَّ وأوضح.

ثم بيَّن ربنا جل وعلا: ما في الخمر والميسر من المفساد الدنيوية والدينية، بقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٩١)؟

في هذه الآية: بيَّن المولى ﷻ بعضًا من حكمة التحريم للخمر والميسر، بعد أن حرَّمهما، وأكَّد هذا التحريم، إذ بيَّن مراد الشيطان من دعوته لنا إلى الخمر والميسر، وهو: إيقاع العداوة والبغضاء بيننا أفراد أو جماعات.

وكذلك: الصد لنا ﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾.

ومن الطبيعي أنه: حيثما وجد الخمر: كان العداء والشر، وحيثما وجد القمار: كانت الشحنة والبغضاء.

وإنما يريد الله لحزه أن يكونوا متحايين؛ ولذلك حرّم الخمر والميسر. كما أنه: حيثما وجد الخمار والقمار: كانت الغفلة عن الله، والله يريد منا أن نكون من الذاكرين لا الغافلين؛ ولذلك حرّم الخمر والميسر. لكل هذا يحضنا رب العزة بعد أن أظهر لنا الحكمة من التحريم.. على الانتهاء، بقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ عن إتيانها، أي: انتهوا.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ (٩٣)

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فيما أمر به، وفيما نهى عنه، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما بلغه عن ربه، ولا تخالفوه ﴿وَأَحْذَرُوا﴾ معصية الله، ومخالفة نبيه عليه الصلاة والسلام.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم، وعصيتهم، وخالفتم، فجزاؤكم علينا، لا على الرسول، ألا ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ فقط.

لما نزل تحريم الخمر والميسر، في قوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: ٩٠] الآية.

قال الصحابة: يا رسول الله فكيف ياخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر، ويأكلون مال الميسر، أي: قبل تحريمهما، فنزل قوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٣)

ومعنى الآية: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ أي: إثم، ﴿فِيمَا طَعَمُوا﴾ أي: قبل نزول تحريم الخمر والميسر.

وذلك الرفع للإثم عنهم يكون: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: تجنبوا الشرك، وآمنوا بالله، وعملوا الصالحات بعد هذا الإيمان؛ مرضاة لله تعالى، وهذه درجة: تكون بينهم وبين أنفسهم.

﴿ثُمَّ اتَّقُوا وَعَامِنُوا﴾ أي: تجنبوا الشبهات، تحرّزًا للنفس عن الوقوع في الحرام، وازدادوا ثقة ويقينًا واطمئنانًا، وظهر ذلك على سلوكهم وتعاملاتهم، وهذه درجة: تكون بينهم وبين الناس.

﴿ثُمَّ اتَّقُوا وَأَحْسِنُوا﴾ أي: تجنبوا بعض المباحات؛ تحفظًا للنفس، وترقُّعًا بها عن دنس الطبيعة، وعبدوا الله تعالى، كأنهم يرونه، أو كأنه يراهم. **﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** أي: يشيهم ويحسن إليهم.

بعد أن قررت السورة في أولها حرمة الصيد للمحرم بالحج أو العمرة، أو بهما، بيّنت من يلتزم بهذا الحكم، ومن لا يلتزم به، وجزاء هذا وذاك، بقوله تعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾

ومعنى الآية: **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ﴾** أي: ليختبركم وأنتم محرمون، **﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾** الذي حُرِّم عليكم صيده حال إحرامكم، فيه الصغير **﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾** دون مشقة، وفيه الكبير تناله **﴿رِمَاحُكُمْ﴾** بشيء من الجهد اليسير، وكان هذا الاختبار **﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾** أي: ليظهر للخلق، **﴿مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾** أي: من يخافه ويراقبه حتى في خلوته، ممن لا يخافه ولا يلتزم بأحكامه، ويعتدي على شرعه.

﴿فَمَن أَعْتَدَىٰ﴾ على أحكام الله وشرعه، **﴿بَعْدَ﴾** وضوح **﴿ذَلِكَ﴾** النهي عمّا حَرَّمَ الله. **﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**.

ثم ينهى ربنا ﷻ عن قتل الصيد للمحرم، مع بيان الجزاء، الذي يزيل الاعتداء المؤدى إلى العذاب الأليم، كما أشارت إليه الآية السابقة. يقول الله سبحانه:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدِيًّا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَةٌ طَعَامًا مَّسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكِ صِيَامًا لِّدَوَقِ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

ومعنى الآية: **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾** أي: لا تذبحوه مُحْرَمُونَ بحج أو عمرة، أو بهما معًا.

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾ حتى ولو ذبحه، فهو ميتة؛ لأن المحرم ممنوع من صيده أولاً، ومن ذبحه ثانيًا، فهو: مخطئ، وعليه الجزاء، الذي يوضحه قوله تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ﴾ وهذا الجزاء: ﴿مِثْلُ مَا قُتِلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أي: عليه أن يهدي من النعم، أي: الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم مثل ما قتل؛ يحكم بهذه المثلية ذوا عدل منكم، على أن يصل هذا الهدى إلى الحرم، فيذبح فيه، ويتصدق به على مساكين الحرم، ﴿أَوْ﴾ عليه ﴿كَفَّارَةٌ﴾ من طعام ﴿مَسْكِينٍ﴾، ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ﴾ الطعام ﴿صِيَامًا﴾ يصوم عن كل مسكين يومًا، وهو مخير بين هذه الثلاثة، وكان ذلك الجزاء، ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أي: ليدوق ضرر وعاقبة هتكه لحرمة الإحرام، ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفُ﴾ مما كنتم تصطادونه قبل هذا الحكم بالتحريم.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى الصيد حال الإحرام ﴿فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ لارتكابه هذا المحرم، ومخالفته للنهي الإلهي.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ممن يتجاوز حدود الإسلام.

وبعد هذا البيان لقتل الصيد في الإحرام، وحكم ذلك، يأتي البيان لصيد البحر، وصيد البر، وحكهما في قوله تعالى:

﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَلَعَا لَكُمْ وَاللَّسْيَارَةَ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٩٦)

والمعنى: صيد البحر حلال لكم محرمين وغير محرمين؛ وكذلك طعام البحر الذي يقذفه من حيواناته، ولو ميتًا حلال، وهو متاع لكم ﴿وَاللَّسْيَارَةَ﴾ أي: المسافرين.

وأما صيد البر.. فهو حرام عليكم ما دمتم محرمين، وهو حلال لغير المحرم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في صيد البحر أن تحرموه في الإحرام، وهو حلال، وفي صيد البر أن تصطادوه في الإحرام ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم بما تستحقون.

وبمناسبة الكلام عن المحرم والصيد وبعض أحكامهم، يذكر سبحانه وتعالى ويبيِّن الحكمة في جعل: الكعبة، والشهر الحرام، والهدى، والقلائد من شعائره ﴿وَاللَّهُ﴾ فيقول:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ﴾

وَأَقْلَيْدَ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

في الآية الكريمة: بيان للحكمة من جعل هذه الأشياء الأربعة المذكورة من شعائر الله وهي أمران:

الأول: ﴿قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ أي: انتعاشًا لهم في أمر دينهم، ونهوضهم إلى مصالح دنياهم.
الثاني: ﴿لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لتزدادوا علمًا بالله، ومالكيته للسموات والأرض، وما فيهما ومن فيهما، وعلما بأنه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وذلك من خلال ممارسة شعائر الحج.

وعلى هذا فمعنى الآية: أن الله خلق الكعبة، التي هي البيت الحرام، انتعاشًا للناس في أمر دينهم ودنياهم، بما يتم لهم خلال حجهم وعمرتهم.

وكذلك: جعل الشهر الحرام وهو: ذو الحجة فقط؛ لاختصاصه بإقامة الحج فيه، أو أنه: جنس الأشهر الحرم، فيكون المراد: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. وكذلك: ﴿وَأَهْدَى﴾ أي: ما يهدي إلى مكة.

﴿وَأَقْلَيْدَ﴾ وهي البُدن التي تُعَلَّمُ بقلادة أو غيرها، وهي وإن كانت من الهدى إلا أنها أخص بالذكر؛ لأن الثواب فيها أكثر، والمهابة معها أظهر.

كل ﴿ذَلِكَ﴾ كان ﴿لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ولذلك: يحكم ويأمر ويمنع ويحلل ويحرم بعلم وحكمة. ثم يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٩٨﴾

والمعنى: ﴿اعْلَمُوا﴾ أيها الناس، ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لأعدائه، ولمن خالف أحكامه، وعاند رسله، وكذب بآياته.

﴿و﴾ اعلموا كذلك ﴿أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: غفور لأوليائه، رحيم بهم. وبالتالي: فهو شديد العقاب.. لمن استخف بالحرم والإحرام وأحكامهما، وهو غفور رحيم لمن عظم المشاعر الحرام. هذه هي الأحكام، و:

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿٩٩﴾

والمعنى: نحن الذين نشرع، ونحلل ونحرّم، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَغُ﴾ فقط، ونحن نكافئ بعد ذلك كل إنسان بما يستحق.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فلا يخفى عليه صدقكم من نفاقكم، وامثالكم من امتناعكم.

وفي ذلك: تشديد لوجوب الامتثال لشرع الله، وتهديد من مخالفته. ولَمَّا ذكر سبحانه أنه يعلم ما يبذون وما يكتمون علم بالضرورة أنه لا يستوي عنده الخيث والطيب، ولذلك قال لحبيبه ﷺ:

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة وعصرك، وقل أنت وأتباعك من المؤمنين للدنيا كلها في كل عصورها: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيِّبُ﴾ عند الله في الثواب والحب منه أبداً، بل يميّز بينهما، فيعاقب الخيث الكافر، ويثيب الطيب المسلم، كما لا يستوي عنده كذلك: الحلال والحرام، ولا الصالح من العمل مع الطالح، وهكذا.

حتى، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ﴾ مالا، أو رجالات، أو أعمالاً. لذلك: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ في ترك الخيث، ولو أعجبكم، وسرتمكم وبهرتمكم كثرته، وإيثار الطيب عليه والفضيلة وإن قل، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون في الدنيا والآخرة برضوان الله تعالى.

ولأن الصحابة رضوان الله عليهم: كانوا يسألون النبي ﷺ في كل شيء، ولأنه ﷺ كان يجيبهم بما يوحيه إليه ربه، ويعلمه إياه فقد أكثروا عليه ﷺ في السؤال، حتى عن أمور لا تعنيهم، أو عن أمور يشق عليهم الإلتزام بها لو فرضت عليهم. ولما أكثروا ذلك: نزل قوله تعالى تأديباً لهم، ورحمة بهم:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن نَسَأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

والمعنى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ﴾ لا تعنيكم، أو تشق عليكم، مثل: هل فرض الحج علينا في كل عام؟ حيث إنها ﴿إِن بُدَّ لَكُمْ﴾ أي:

تُجَابُونَ عَنْهَا، وَتَكَلِّفُونَ بِهَا ﴿تَسْؤُكُمْ﴾ أَي: تَغْمُكُم؛ لَمَا فِيهَا مِنَ الْمَشَقَّةِ عَلَيْكُمْ، خَاصَّةً وَأَنَّهُ: ﴿إِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ﴾ تَوَمَّرُونَ بِتَحْمُلِهَا، وَقَدْ يَكُونُ فِيهَا مِنَ الْمَشَقَّةِ مَا يَجْعَلُكُمْ تَفْرَطُونَ فِي الْقِيَامِ بِهَا، وَبِذَلِكَ تَعَرِّضُونَ أَنْفُسَكُمْ لَغَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ بِالضَّرُورَةِ، وَنَتِيجَةُ سْؤَالِكُمْ، س: ﴿بُدَّ لَكُمْ﴾ وَبَيَّنَّ الْحُكْمَ فِيهَا. لِذَلِكَ: فَلَا تَسْأَلُوا عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا تَعْنِيكُمْ، وَالَّتِي يَسْؤُكُمْ بَيَانُ الْحُكْمِ فِيهَا، وَالتَّكْلِيفُ بِهَا، وَأَمَّا أَسْئَلْتِكُمْ الَّتِي سَبَقَتْ نَزُولَ هَذِهِ الْآيَةِ: فَقَدْ ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ فَلَا تَعُودُوا لِمِثْلِهَا بَعْدَ ذَلِكَ. ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لَا يَعْاقِبُ إِلَّا بَعْدَ الْإِنذَارِ، وَعَدَمِ الِاسْتِجَابَةِ.

هذه التساؤلات:

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (١٠٢)

والمعنى: أن هذه الأسئلة التي لا تعني المرء الإجابة عليها، وقد يشق عليه التكليف بها: فقد سأل مثلها أناس غيركم عن أمم سابقة، مثل: سؤال الناقة من قوم صالح، وسؤال المائدة من قوم عيسى، وسؤال رؤية الله جهرة من قوم موسى...

كما كان بنو إسرائيل يسألون أنبياءهم في أشياء، فإذا كلفوها، وأمروا بها تركوها، ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا﴾ أَي: صاروا، بعدم الإيمان بعد إجابتهم، أو بترك العمل بعد تكليفهم به ﴿كَافِرِينَ﴾، فلا تكونوا مثلهم.

بعد ذلك: بيّن الله ﷻ الصواب في بعض الأمور التي ابتدعتها الجاهلية، فيقول تعالى:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٣)

والمعنى: لم يشرع ربنا ﷻ هذه الأشياء المذكورة في الآية، ولكن علماءهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ حيث يشرعونهم، ويقولون: أمر الله بهذا، وحرّم الله هذا.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ أَي: عوامهم، وأراذلهم، الذين يتبعونهم من معاصري رسول الله ﷺ يتبعونهم، ويقلدونهم، دون محاولة للاهتداء إلى الحق، وذلك لأنهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا عقل عندهم لغباثتهم، أو لا يستعملون عقولهم لمعرفة الصواب من الخطأ.

وهذه الأشياء، التي شرَّعها رب العزة هي:

البحيرة وهي: الناقة، التي تلد خمسة بطون، في آخرها ذكر، وحكم هذه عند أهل الجاهلية: أنها تُشَقُّ أذنها، وتُترك، فلا تُركب، ولا تُحلب، ولا تُطرد عن مرعى ولا ماء، وإذا لقيها الضعيف لم يركبها.

والسائبة وهي: البعير الذي يسيبه الرجل إذا قدم من سفر، أو شفي من مرض ويتركه حرًا، لا يركب، ولا ...، ولا ... مثل البحيرة.

والوصيلة وهي: الشاة، التي تلد سبعة بطون، فإذا قيل: وصلت أختها، فجرت مجرى السائبة.

والحام هو: الفحل، إذا نتج من صلبه عشرة بطون، قالوا: قد حمى ظهره، فلا يركب، ولا يُحمل عليه، ولا يُمنع من ماء، ولا مرعى. هؤلاء الجاهليون:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

والمعنى: هؤلاء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ﴾: هلّموا إلى حكم الله ورسوله، من تحليل ما حرّمتم من هذه الأشياء، ﴿قَالُوا حَسْبُنَا﴾ يكفيننا ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من الدين، والشريعة، والعادة.

يرد الله عليهم بقوله: أيكفيهم هذا، وينفعهم، حتى ﴿أُولَٰئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ عن الحلال والحرام ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق بأنفسهم، من غير وحي السماء، أصلاً؟ وذلك: من باب الإنكار عليهم موقفهم.

وحتى لا يتأثر أحد بهؤلاء الكفار الجاهليين، الذين لا يقبلون شرع الله، بل ﴿يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، يطالب ربنا أوليائه بالاهتمام الشديد بإصلاح أنفسهم، وعدم التأثر بالفاسدين ممن حولهم، قائلاً جل جلاله:

﴿بَنَاتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

يروى في سبب نزول هذه الآية أنه: كما كان المؤمنون يتحسرون على عدم إيمان

الكفرة، وكانوا يتمنون إيمانهم، وهم على ما هم عليه من الضلال، والتقليد والعناد، فنزلت الآية ومعناها: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: احفظوها، وقوموا بإصلاحها، وتركيتها.

﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ﴾ ممن أمرتموه بالمعروف، ونهيتموه عن المنكر، فلم يستجب لكم، وذلك: ﴿إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ أنتم.

ولا تبتسوا من أجلهم، حيث إنه: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جميعًا، فيجازي كل فريق منكم بما يستحق من العقاب للعاصي، والثواب للمطيع.

ويلاحظ: أن هذه الآية ليست نازلة للرخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل جاء عن أبي بكر رضي الله عنه، أنه قال: تعدونها رخصة؟ والله ما نزلت آية أشد منها، وإنما المراد: لا يضرُّكم من ضلَّ إذا اهتديتم.

ولذلك: لا ينبغي أن يتوهم متوهم أن هذه الآية، رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع استطاعتها.

فقد روي أن الصديق رضي الله عنه، قال يوماً على المنبر: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها، ولا تدرّون ما هي...!!؟ وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «إن الناس إذا رأوا منكراً، فلم يغيروه، عمهم الله بعقاب، فأمروا بالمعروف، وانها عن المنكر، ولا تغتروا بقول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ فيقول أحدكم: عليّ نفسي، والله: لتأمرنَّ بالمعروف، وتنهونَّ عن المنكر، أو ليستعملنَّ الله عليكم شراركم، فيسومونكم سوء العذاب، ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لهم».

ومن الأحكام الإسلامية الرائعة، التي تفرد بها سورة المائدة، ما ورد في الآية التالية في قوله تعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ آرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّعِنَ الْأَلْمِينِ ﴿١٠٦﴾﴾

قال العلماء: هذه الآية، والآيتان بعدها: من أصعب وأشكل أي: القرآن.. حكمًا، وإعرابًا، وتفسيرًا.

هذه الآية: في وصية المرء، حال الاحتضار بالموت، خلال السفر وهنا:

أولاً: عليه أن يُشهد على هذه الوصية.

ثانيًا: أن يكون الشهود عليها اثنين من المسلمين العدول، فإن لم يوجد من المسلمين فائنان آخران من الموجودين ساعة الاحتضار، وحين الوصية، ولو كانا من غير المسلمين.

ثالثًا: كيفية الشهادة.

تقبل شهادتهما على هذه الوصية إذا لم يوجد شك، أو طعن من الورثة المستحقين للتركة في شهادتهما، فإذا حدث شك أو طعن.

فما العمل الذي ترشد إليه الآية؟ ﴿تَحْسِبُونَهُمَا﴾ أي: توقفونهما بعد الصلاة - العصر، أو الظهر، أو أي: صلاة، على خلاف في ذلك، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ على صحة هذه الوصية، وأنهما - في الوقت ذاته، وبالقسم نفسه - لا يشتريان بشهادتهما هذه، أي لا يأخذان في مقابلها عوضًا من متاع الدنيا الفاني الزائل، من أي أحد له مصلحة في ذلك، كما أنهما: لا يحاييان قريبًا بهذه الشهادة، ممن له مصلحة في ذلك، كما أنهما: لا يكتمان الشهادة، وأنهما - أخيرًا - إن فعلا ذلك كله، أو شيئًا من ذلك، كأخذ عوض، أو محاباة قريب، أو كتمان شهادة: فهما من الآثمين، المستحقين لعقاب الله.

وبهذا بيان حكم وصية الميت خلال السفر والشهادة عليها. ثم قال تعالى:

﴿إِن عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا فَاخْرَاجِ يَوْمَئِذٍ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَٰئِينَ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِن شَهِدْتَهُمَا وَمَا كُنَّا بِإِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

ومعنى الآية: أنه بعد تمام الوصية، والشهادة عليه، كما في الآية السابقة: تنتهي الأمور على خير وجه لكن: إن ظهر وتأكد ﴿أَنَّهُمَا﴾ أي: الشاهدين، ارتكبا مخالفة، و﴿اسْتَحَقَّ إِثْمًا﴾ بأن: أخذوا عوضًا على شهادتهما، أو كانت هناك محاباة لقريب، أو كتمان الشهادة، أو شيء منها.

﴿فَاخْرَاجِ﴾ أي: فائنان غيرهما، يكونان من الورثة، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ للشهادة

﴿مَقَامَهُمَا﴾، ويكونان - كذلك - ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي: أصابهم ضرر الإثم، الذي ارتكبه الشاهدان ﴿الْأَوَّلِينَ﴾.

ولكن: كيف يشهدان؟ يجيب رب العزة بقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أن شهادتهما عليهما، بأنهما أخذتا عوضًا، أو جاملا قريبهما، أو كتما الشهادة ﴿أَحَقُّ﴾ وأصدق ﴿مِنَ شَهَدَتِيهِمَا﴾ السابقة، التي أدياها أولًا، وأنا ﴿مَا أَعْتَدْنَا﴾ عليهما ولا على غيرهما في هذه الشهادة، ولو كان ذلك، أو شيئًا منه: ﴿إِنَّا إِذَا لِمَنَ الظَّالِمِينَ﴾ فينتقم الله منَّا، بسبب ظلمنا لو كان، ولكن لم نظلم أحدًا.

وهذا الحكم، الذي رسخته هذه الآية: له حكمة بليغة توضحها الآية التالية. في قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَأَسْمِعُوا ۙ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

ومعنى الآية: أن ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم السابق، وهو رد شهادة من حضر وصية الميت خلال السفر، وكانت غير حقيقية، ﴿أَذَىٰ﴾ أي: أقرب طريق، وأيسر حيلة، ﴿أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا﴾ أي: أن يؤدي الناس الشهادة على وجهها الصحيح ابتداء من غير تحريف ولا خيانة، ﴿أَوْ يَخَافُوا﴾ حين يعلمون هذا الحكم، ويتوقعون حدوث ذلك لهم، ﴿أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ﴾ أي: يُطلب من الورثة المدَّعين، حين الشك والارتياب، أن يحلفوا على كذب هؤلاء الشهود وخيانتهم، فيحلفون، ويظهر صدقهم، وبذلك: يُفتضح أمر الشهود الأول. ﴿بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ التي حلفوها كذبًا وزورًا.

يقول تعالى للجميع: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الخيانة والكذب، ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ ما تؤمرون به، سماع قبول وامتنال، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته.

وفي ختام السورة يطوى الزمن، ويعرض المولى علينا فيها؛ كيف أنه سيجمع الرسل ﷺ، ويسألهم عن إجابات أقوامهم لهم.

وكأن ذلك يشير إلى: أن رسول الله ﷺ قد بلغ، وأن على الناس أن يستجيبوا، وأن الرسول ﷺ شهيد على هذا الموقف، الذي سيجمع الله فيه الرسل، فيقول عز وجل:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ﴾
 ﴿الغُيُوبِ﴾ (١٠٩)

والمعنى: تذكروا يا مؤمنون، واحذروا، إذ يجمع الله الرسل يوم القيامة فيقول لهم توبيخاً لمن لم يؤمن بهم، ويتبعهم من أقوامهم ﴿مَاذَا﴾ أي: ما الذي ﴿أُجِبْتُمْ﴾ حين دعوتهم أقوامكم إلى التوحيد، وعبادة الله؟ ﴿قَالُوا﴾ رادّين الأمر إلى علمه سبحانه ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ يا ربنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ﴾ كل ما غاب عن العباد، وما غاب عنا من باطن الأمور، وأما نحن فلا نعلم إلا ما نشاهد. وقد قالوا ذلك: لشدة هول يوم القيامة، وفرعهم، ولكن حينما يسكن حالهم، ويهدأ بهم: يشهدون على أممهم. ومن بين الرسل جميعاً: يخص الله عيسى ﷺ، بكلام يتقرر فيه صحة ما قال رسول الله ﷺ في شأن عيسى، حيث يقول الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَيْدِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَيْدِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِأَيْدِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِأَيْدِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١١٠)

والمعنى: ومن هذه الأمور الغيبية، التي أشار إليها الرسل، ولا يعلمها إلا الله تعالى، وتحدث في يوم القيامة: ما يقوله ربنا تبارك وتعالى لعيسى ﷺ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ يعني: يقول ﴿لِيَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ حيث أنبتها الله نباتاً حسناً، وطهرها، واصطفها على نساء العالمين.

ثم عدّد ربنا على عيسى من نعمه عليه سبعا:
 الأولى: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: قوّيتك ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل ﷺ، فكان يسير معه حيث سار، يعينه على الحوادث التي تقع، ويلهمه المعارف والعلوم، وكنيت ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ طفلاً، وتكلّمهم كذلك بالدعوة ﴿وَكَهْلًا﴾ وتقول لهم: إني عبد الله ورسوله.

الثانية: ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ والمراد بـ: ﴿الْكِتَابَ﴾ الكتابة، وهي الخط، و﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ الفهم والاطلاع.

الثالثة: ﴿وَإِذْ تَخَلَّقُ﴾ أي: تصوّر ﴿مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي: بموافقتي لك على ذلك ﴿فَتَنْفِخُ فِيهَا﴾ فتدب فيها الحياة ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا حَقِيقًا بِإِذْنِي﴾.

الرابعة: ﴿وَتُورِي﴾ أي: تشفي ﴿الْأَكْمَهَ﴾ الأعمى المطموس البصر ﴿بِإِذْنِي﴾، وتشفي كذلك ﴿الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾.

الخامسة: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ من قبورهم أحياء ﴿بِإِذْنِي﴾.

السادسة: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ أي: صرفت عنك اليهود، ومنعتك منهم، حين أرادوا قتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات الواضحات، والمعجزات الباهرات، على وحدانيتي ونبوتك، ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ تبريرًا لمحاولاتهم قتلك ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

السابعة: في الآية التالية:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَأَمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

والمعنى: اذكر - كذلك - من نعمي عليك:

وقت أن ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى﴾ أي: ألهمت ﴿الْحَوَارِيِّينَ﴾ وهم الخواص، أو الأصفياء، أوحيت إليهم ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ تأييدًا لك بهم، ونصرة على من كفر من بني إسرائيل، ﴿قَالُوا﴾ أي: الحواريون ﴿ءَأَمَنَّا﴾ بالله وبرسوله، ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: مخلصون في إسلام وجوهنا لله، وسائرون على درب كل المسلمين، من رسل الله تعالى وأنبيائه، وأتباعهم الصالحين المسلمين.

وبعد هذا التعداد لنعم الله على عيسى عليه السلام: يبين ربنا عز وجل بعض ما جرى بين عيسى عليه السلام وقومه. فيقول جل جلاله:

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

والمعنى: اذكر عندما قال الحواريون المؤمنون الصادقون في إسلامهم، المخلصون لله تعالى قالوا لعيسى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أي: يطيعك ربك، وينزل علينا مائدة من السماء، إذا سألته ذلك؟ ﴿قَالَ﴾ عيسى لهم ﴿أَتَقُوا اللَّهَ﴾ ولا تقترحوا الآيات، بعد ظهور المعجزات، وكثرة الدلالات، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بكمال قدرة الله، وبصحة نبوتي.

وقال الإمام أبو السعود رحمه الله: أمرهم بالتقوى؛ ليصير ذلك وسيلة لتحقيق المطلوب، كما في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١١٣﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

يعني: اتقوا الله؛ ليتحقق لكم نزول المائدة. وهنا أجابوه قائلين:

﴿قَالُوا زَيْدٌ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٤﴾﴾

والمعنى: ليس سؤالنا عن شك في قدرة الله، ولا اقتراح الآيات، ولا التعتت في طلب المعجزات؛ لأننا مؤمنون بقدرة الله عليها، ومؤمنون كذلك برسالتك.

ولكن سؤالنا له أهداف أربعة:

الأول: ﴿أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ تَبَرُّكًا.

الثاني: ﴿وَتَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بزيادة اليقين والمشاهدة.

الثالث: ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ عَيَانًا، كما علمناه استدلالًا.

الرابع: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: نشهد عليها عند الذين لم يحضروها ويشاهدوها من بني إسرائيل، فيزداد المؤمنون منهم بشهادتنا إيمانًا و يقينًا، ويؤمن بها الكافرون منهم.

ولما ظهر أن سؤالهم للعلم، وليس للتعنت، كان جوابه ﷺ هكذا: قام، واغتسل، وصلّى، وطأطأ رأسه، وغصّ بصره، وسأل ربه المائدة.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾

ومعنى الآية: أن عيسى عليه السلام توجه إلى ربه وسأله نزول المائدة، قائلاً: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا﴾ كما طلبوا ﴿مَائِدَةً﴾ وهي: الخوان إذا كان عليه الطعام ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾، ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ أي: تتخذ يوم نزولها ﴿عِيدًا لِأَوْلَادِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي: لمن في زماننا، ولمن يأتي بعدنا من أهل ديننا، وتكون ﴿آيَةً مِنكَ﴾ على رسالتي، وصحة نبوتي، ﴿وَأَرْزُقَنَا﴾ بها ومنها رزقاً حسناً طيباً، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ المعطين للخلق ما سألوا من الأرزاق. وكان الجواب، كما تصوّره الآية التالية:

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرِّئُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٥)

والمعنى: ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ تعالى لهم بعد سؤال عيسى: ﴿إِنِّي مُرِّئُهَا عَلَيْكُمْ﴾ كما طلبتم، لتزدادوا بها يقيناً وإيماناً، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ أي: بعد إنزالها منكم ﴿فَأِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أشد الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.

فنزلت الملائكة بالمائدة من السماء، كما يرى جمهور الأئمة والعلماء، ويقول الإمام ابن كثير رحمه الله: وهو الصواب.

وتقول الروايات: إنهم - أي: بني إسرائيل - أمروا ألا يخونوا، وألا يدخروا منها، ولكن كثيراً منهم: خانوا، وادخروا، وخالفوا، وكفروا، فعذبهم الله تعالى عذاباً لم يعذبه أحداً من عالمي زمانهم، ولا غير زمانهم، حيث مسخهم خنازير.

كان الحوار السابق بين عيسى عليه السلام والحواريين في الدنيا، والحوار الآتي بين الله تعالى وعيسى عليه السلام في الآخرة، يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦)

ومعنى الآية: اذكر وقت أن يقول الله يوم القيامة لعيسى ابن مريم: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟ أجاب عيسى عليه السلام ربه، قائلاً: ﴿سُبْحٰنَكَ﴾ أنت منزّه عما لا يليق بك من الشريك وغيره.

ثم قال ﷺ: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ أي: ما ينبغي أبداً لي ولا لغيري، ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ قولاً ليس لي أن أقوله، فضلاً عن أنه ليس حقاً، ولا صدقاً في ذاته. ثم، وهذا هو الأهم: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ﴾ وحاشا لله ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ حيث إنك: ﴿تَعْلَمُ مَا أَخْفِيهِ فِي نَفْسِي﴾ أي: معلومي، ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي: معلومك.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ﴾ كلها، ومن ذلك: ما انطوت عليه النفوس، ومن كان كذلك: لا يصل إلى علم علمه أحد. ثم قال متبرِّئاً من دعاوهم:

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ والمعنى: قال عيسى ﷺ لربه ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ أي: لبني إسرائيل ﴿إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ يعني: ما أمرتهم إلا بما أمرتني أنت به.

وفسر عيسى ما أمره به ربه، وما بلغه هو به لبني إسرائيل، بقوله: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: رقيباً، مدة إقامتي فيهم وبينهم، أمنعهم مما يقولون، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ قبضتني بالرفع إلى السماء، ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ﴾ أي: المراقب والحافظ لأعمالهم وأقوالهم، خاصة: ﴿وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ من قولهم، وموقفي معهم، وقولهم وموقفهم من بعدي ﴿شَهِيدٌ﴾ مطلع عالم به. وبعد ذلك: فَوَضَّ الْأَمْرَ إِلَىٰ رَبِّهِ قَائِلًا:

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ والمعنى: الأمر إليك يا رب ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ﴾ من كفر منهم، وعاند: ﴿فَأِنَّهُمْ عَبْدُكَ﴾ لك فيهم الأمر والنهي والتصرف، لا اعتراض عليك، ﴿وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ﴾ لمن آمن منهم: ﴿فَأِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره، الذي يعفو عند المقدرة ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه، وأمره، وعفوه وعذابه.

ثم يختم ربنا الكلام عن حكاية ما يقع يوم القيامة مع الرسل حين يجمعهم بقوله عز وجل:

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لِمَ جَنَّتَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾

والمعنى: ﴿هَذَا يَوْمُ﴾ القيامة ﴿يَنْفَعُ﴾ فيه ﴿الصَّادِقِينَ﴾ في الدنيا ﴿صِدْقُهُمْ﴾ لأنه يوم الجزاء، حيث: يكون ﴿لِمَ جَنَّتَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يقيمون فيها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها، إنما هم فيها ﴿أَبَدًا﴾ إلى ما لا نهاية.

وأفضل ما في ذلك: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بالسعي المشكور، والعمل المقبول، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بالجزاء الموفور، والنعيم والسرور.

حقيقة: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾؛ لأنه باق، بخلاف الفوز في الدنيا: فإنه لا يدوم.

وفي نهاية السورة: يحقُّ الله الحق، وينبئه على كذب النصارى، وفساد ما زعموا في حق المسيح وأمه عليهما السلام حيث يوضح بجلاء.. ملكيته للسموات والأرض، وما فيهما ومن فيهما، وتصرفه في الجميع كيف يشاء، وذلك بقوله جل جلاله:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾

ومعنى الآية: التعظيم لله، والتنزيه لله تعالى من أن يكون معه إله آخر؛ حيث إنه: مالك كل شيء، كما أنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المنع والإعطاء، والإيجاد والإفناء ﴿قَدِيرٌ﴾، ومن ذلك: إثابة الصادق، وتعذيب الكاذب.
